المجلة العلمية لكلية السياحة والفنادق
عدد خاص (٢٠٢١)
الرقم الدولي التسلسلي: ٢٣١٤-٧٠٢٤
الرقم الدولي التسلسلي الإلكتروني: ٢٦٨٢-٢١٨٠

أصداء تاريخية لفتح صلاح الدين آيلة من الصليبيين ١١٧٠م/ ٥٦٦هـ و ١١٨٣م/٥٧٩هـ

علي أحمد محمد السيد

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب – جامعة دمنهور

الملخص

يستهدف هذا البحث التعرف على الظروف المحيطة بحدث غزو الصليبيين لبلدة آيلة وجزيرة فرعون المواجهة لها، واستردادهما مرتين فى عام ١١٧٠م وفى عام ١١٨٣م؛ وما ترتب على ذلك من نتائج سياسية عسكرية، وعودة الحج البري والتجارة مصر والشام، وانفتاح المغرب العربي على مشرقه.

فمن الناحية السياسية والعسكرية؛ أحدث الاسترداد الصلاحى الأول لآيلة نقلةً حربيةً جديدة على ساحة القتال الإسلامى الصليبى بأسرها، واتصلت مصر بالشام عملياً وأصبح مصيرهما واحداً فى ساحة القتال وجمعتهما الوحدة السياسية الذى جسدها ذلك الجسر البرى الرابط بينهما عبر آيلة والمعروف تاريخيًا بطريق صلاح الدين الحربى. وحينها وجد صلاح الدين نفسه فى مواجهة القبائل البدوية المتعاونة مع الفرنج. أما بعد استردادهُ لها ثانيةً، وبعد أن ذاع صيته بإنقاذ الأراضي المقدسة في الحجاز من الصليبيين، تمكن من ضم البدو لمعسكره، ما ساعد على تأمين الطريق.

أما الصدى الثاني فيتمثل في تنشيط حركة الحج والتجارة على الطريق البري رغم وجود الطريق البحري عبر البحر الأحمر الذى في وسعه أن يقوم بالدور نفسه، وظل يقوم بهذا الدور بقية عهد الدولة الأيوبية مع فترات من التوقف، ثم انتعش من جديد أثناء حكم الظاهر بيبرس للبلاد بحيث بدا وكأنه الطريق الرئيسي للانتقال إلى الحجاز والشام.

ويتمثل الصدى الثالث في تنشيط الحركة الثقافية والاجتماعية، نظرًا لارتباطهما بالحج والتجارة، فنزح المجاهدون المغاربة إلى المشرق الإسلامي لمجاهدة الصليبيين، ومجاورة علمائهم للمسجد الحرام والمسجد النبوي، فضلًا عن الإقامة في مصر والشام، وواكب ذلك تأثيرات مذهبية برزت فى مجال تزايد أعداد المعتنقين للمذهب المالكى فى فلسطين تحديداً، كما حازاها فى مجال الثقافة ورود فنون جديدة من المغرب فى مجال الكتابة الأدبية.

الكلمات الرئيسية: آيلة، صليبيون، طريق صلاح الدين، حج، تجارة، انفتاح، مغاربة.

المقدمة

يتركز هذا البحث على دراسة بعض الجوانب التاريخية السياسية منها والحضارية التي ترتبت على أحداثٍ تتعلق بخليج العقبة و تنصبُ تحديداً على

تلك البلدة المهمة الواقعة عند رأسه جهة الشمال، ألا وهى بلدة آيلة والجزيرة المواجهة لها الحاملة مسماها، أومسمى فرعون من خلال ما سجلته المصادر التاريخية بداية من استرداد المسلمين لهما من السيطرة الصليبية فى عام ١١٧٠م/٥٦٦هـ وما ترتب على هذا الحدث من نتائج فى شتى الجوانب أخذت فى التواصل والتفاعل طوال الفترة المتبقية من القرن الثانى عشر الميلادى /السادس الهجري وصولاً إلى القرن الذي يليه أى خلال فترة الغزو الصليبى للشرق الممتد من ١٠٩٧-١٢٩١م/ ٤٩٠-٦٩٠هـ.

ولما كانت معظم النتائج المترتبة على استرداد أيلة حضارية، فيتاكد لنا بوضوح أن هذه الدراسة جديدة فيما هدفت إليه، وعليه تقتصر الدراسات السابقة التى تناولت الأحداث حول أيلة عهد صلاح الدين على الجانب العسكري ، لذا حرص الباحث على تضمينها فى البحث. أما عن المنهجية المتبعة فى إنجازة فهى تعتمد على المنهجية التاريخية بجوانبها المختلفة؛ تحليلية وبنائية وصفية..... ألخ.

وجغرفيًا، لم يكن البحر الأحمر فى أى عهد من عصور التاريخ عنصر فصل بين الشعوب الآسيوية المتاخمة للساحل الشرقى منه وبين الشعوب المغاربية المتاخمة لساحله الغربى من الاتصال والاختلاط والاندماج؛ بل والتأثير الحضاري وإنما كان تأثير كل منهما على الآخر واضحاً وهذا يتضحُ على سبيل المثال فى غلبة شعوب شبه الجزيرة العربية على الشعوب الأفريقية فى التركيبات الجنسية والرسالات السماوية والتأثيرات التجارية والاقتصادية والثقافية (عبد القادر، ١٩٨٠م، ص٧١). في حين ظل الوجود الصليبي في ساحل المتوسط الشرقي طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين/ السادس والسابع الهجريين يشكل حائلًا دون تواصل جناحي الأمة العربية، ما أكد على أهمية وجود معبر آخر للنفاذ منه فيما بينهما.

١. آيلة بين السيطرة اللاتينية والفتح الإسلامي

وبلدة آيلة AILAT (العقبة حالياً)[١] تقع على بُعد ١٩٠ ميلاً من السويس بطريق البحر و١٥٠ ميلاً بطريق البَّر، سكانها من بدو الحويطات وهى تقع على تل محاط بأشجار النخيل وبها آبارٌ عذبة تستخدم فى زراعة بعض المحاصيل. وقد اتفق المؤرخون والجغرافيون الآتى ذكرهم على وصفها بذلك ومما يضيفه اليعقوبى (١٨٩١، ص٧٨) أن "مدينة آيلة مدينة جليلة على ساحل البحر الملح وبها يجتمع حاج الشام وحاج مصر والمغرب وبها التجارات الكثيرة وأهلها أخلاط من الناس ...". كما يذكر عنها المقدسى البشّارى (١٩٠٣، ص ١٧٨-١٧٩) "وويلة مدينة على طرف شعبة بحر الصين [البحر الأحمر المتشعب من المحيط الهندى] عامرة جليلة ذات نخيلٍ وأسماك فرضة فلسطين وخزانة الحجاز والعام يسمونها آيلة ... وفى آيلة تنازع بين الشاميين والحجازيين والمصريين... وإضافتها إلى الشام أصوب لأن رسومهم وأرطالهم شامية ". وقد عُرفت آيلة في عهد الحروب الصليبية على أنها "بلدة مضار الأعراب الذين يسكنون الصحراء" (التطيلي، ١٩٤٥م، ص ١٨). أما أبو الفدا

(١) ورد اسم آيلة (آيليم) في التوراة عدة مرات وهناك المزيد من المسميات للبلدة ومنها ويله – إيل – أبلوت – أيلون – أيلونا – إيلاث – إيلانا – إيليا . انظر: (خورشيد وآخرون، ١٩٦٦، ج٥، مادة آيلة)؛ وكانت البلاد قد اشتهرت عند النبطيين والإغريق والرومان بنشاطها التجاري ثم غدت مركزاً لكرسى أسقفي في العهد المسيحي. راجع (شقير، ١٩٩١م، ص ١٩٦). ولمعرفة المزيد عن المسمى و الموقع والتاريخ الباكر راجع: (البلاذري، ١٩٥٧،ج١، ص ٧١)؛ راجع أيضاً: (Whitcomb, 1994, pp 359-363).

(١٨٤٠م، ص ٨٦-٨٧) فيوضح أن "آيلة كانت مدينة صغيرة وكان بها زروع يسيرة وهى على ساحل بحر القلزم. وعليها طريق حاج مصر وهي في زماننا برج وبه والٍ من مصر وليس بها زروع وكان بها قلعة فى البحر فعُطلت ونقل الوالى [الأيوبي] البرج إلي الساحل".

كانت آيلة قد دخلت حلبة الصراع الإسلامي الصليبى متأخراً بعض الشيء إذ كانت جزءاً من مشروع توسعى تبناه أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية بلدوين الأول Baldwen I (١١٠٠-١١١٨م / ٤٩٣-٥١٢هـ) تقرر تنفيذه بعد أن قام بعدد من الحملات الاستطلاعية في أعوام: ١١٠١م /٤٩٤هـ ، ١١٠٧م /٥٠١ هـ ، ١١١٥م /٥٠٩ هـ، ١١١٦م / ٥١٠ هـ، وعليه اشتمل المشروع على خططٍ أمنية فضلاً عن خططٍ لتوسيع حدود المملكة الجنوبية والشرقية لقطع طرق الاتصالات بين مصر ودمشق وفوق أحد التلال قام الصليبيون بتشييد قلعة ضخمة من الحجر الأبيض ووضعوا بها حامية من الفرسان وهى التى عرفوها باسم Mountroyal (المقريزي، ١٣٣٤هـ، ج١: ص٢٠٠؛ Muller, 1966, 25-26) وأمدوا توسعاتهم حيث ضموا بلدة البتراء Pierre de desert وأقاموا فيها قلعة فوق تلٍ صغير (d' Aix, 1879, p. 702).

ولم يلبث أن جاء دور بلدة آيلة إذ واصل ستون فارساً صليبياً يتقدمهم الملك بلدوين الأول غزوهم فى العام التالى ١١١٦م فدخلوها وفيها شيدوا قلعة عُرفت باسمها – قلعة آيلة – ثم عبروا خليج العقبة إلي جزيرة فرعون وأسموها L' île de Graye حيث أسسوا فيها قلعة أخرى، ووضع الصليبيون حاميةٍ من الفرسان فى كلتا القلعتين (d' Aix, 1879, p. 703; Charters, 1969, pp. 218-219)، وبذلك جاء غزو آيلة وجزيرة فرعون كجزء من المشروع الصليبى الكبير لتأمين وتوسيع حدود مملكة بيت المقدس الصليبية جهة الجنوب والشرق وقد ترتب على ذلك أن سيطر الصليبيون على الطريق المعتاد للقوافل بين مصر والشام والحجاز ما اضطرها أن تسلك طرقاً بعيدة فتحول الحج الإسلامي المغربى المصرى إلى طريق عيذاب جنوباً عبر البحر الأحمر، كما اختلت الحركة التجارية عليها (ربيع، ١٩٨٠م، ص١٢٢).

لقد كانت آخر مراحل التوسع الصليبى شرقاً تتمثل فى غزو منطقة الكرك الخصيبة حيث تمكن الفرنج من تشييد قلعة ضخمة بها شديدة الحصانة فى عام ١١٤١م /٥٣٦هـ (Tyre, 1943, Vol. II: pp. 127-128; Deschamps, 1939, Vol. I: pp. 11, 38-39)، وببنائها تكاملت أركان إقطاعية صليبية عدت من البارونات الأربع الكبار فى المملكة الصليبية، عُرفت ببارونية شرق الأردن (d' Iblin, Segniorie de L' autre Jordan 1983, Vol. I: pp. 418-419)، ويقدر أحد الباحثين مساحتها بأنها تمتد من نهر الزرقاء شمالاً حتى خليج العقبة جنوباً (Latrie, 1878, in B.E.Char., 1878, Vol. XXXIX, pp. 412-418)، ومن ثم فقد حاز بارونتها آيلة ضمن ممتلكاتهم. وبحلول عام ١١٧٠م فقدت بارونية شرق الأردن وآيلة سيدهما همفري الثالث (Mayer, 1985, pp. 76-77)، ليخلفه ابنه همفرى الرابع الذي كان قاصراً فى سن الخامسة، فتولت أمه ستيفانى الوصاية عليه (Tyre, 1943, Vol. II, pp. 401, 426 – 432; Hamilton, 1979,

pp. 97, 103–108)، وفى ذلك الوقت كان حُكام دمشق ومصر فى انتظار اللحظة التى تسنحُ أمامهم الفرصة فيها لأعادة الاتصال بين مصر والشام.

وعلى الجانب الآخر أخذت الصحوة الإسلامية فى التنامى وصار الجهاد هو شعارها، وتمكن نور الدين محمود زنكى ملك الشام من الوقوف على جبهة القتال الأولى ضد الصليبين بالاستيلاء على دمشق ١١٥٤م /٥٤٩هـ، وما لبث أن شرع فى محاولة إكمال توحيد الجبهة الإسلامية بضم مصر، فدخل فى حلقاتٍ من السباق عليها مع مملكة بيت المقدس بعد أن خارت قوى الفاطميين حتى حُسم الأمر لصالحه فى النهاية حينما اضطر الخليفة العاضد آخر خلفاء تلك الدولة المتوفى فى (١١٧١م/ ٥٦٧هـ) إلى تعيين قائد جيوش نور الدين وهو أسد الدين شيركوه وزيراً على مصر (ابن الأثير، ١٩٧٩، ج٨، ق١، ص ٢٧٨) ، وسرعان ما تهيأت الظروف أمام صلاح الدين الأيوبى ابن أخى شيركوه كى يتولى الوزارة خلفاً لعمه الذى توفي فى مارس ١١٦٩م / جمادى الآخر ٥٦٤هـ (ابن شداد، ١٩٦٤، ص ٣٩–٤٠)[٢].

وقد ظلت آيلة الصليبية تشكل حجر عثرة يحول دون اتصال نور الدين فى الشام وصلاح الدين فى مصر (عبد الوهاب، ١٩٩٢، ص ٥١–٥٩، ١٠٩)، فراح نور الدين يبحث عن حل لتلك المشكلة خاصةٍ بعد أن خضعت مصر له، فأجرى تنسيقًا عسكريًا مع قائده في مصر صلاح الدين، الذي خرج من القاهرة في السابع والعشرين من نوفمر ١١٧٠م / منتصف ربيع الأول ٥٦٦هـ؛ لاستقبال قافلة كانت تضم بعضاً من أهله فبلغ قبالة بلدة آيلة التى كان الصليبيون قد حصنوها بتأسيس قلعةٍ فيها " فعمر لها المراكب وحملها إلى ساحلها على الجمال وركبها الصناع هناك وشحنها بالرجال" وتمكن من فتحها فى آخر العام الميلادى/ العشرين من ربيع آخر؛ بالهجوم عليها براً وبحراً حيث "استحلها واستباح بالأسر والقتل أهلها وملأها بالعَدد والعِدد وحصنها بأهل الجلاد والجلد واجتمع بأهله عليها وسار بهم على سمتٍ [طريق] إلى القاهرة" (أبو شامة، د–ت، ج١: ص١٩١؛ المقريزي، ١٩٩٩م، ج٣، ص ٣١٩–٣٢٠)، وبذلك تبدو الحيلة الحربية التى لجأ إليها صلاح الدين من أجل مفاجأة الصليبيين فى تظاهره بالتحرك بحجة استقبال القافلة الشامية ، والواضح أيضاً أن العملية الحربية تلك شملت بالضرورة القلعة الكائنة بجزيرة فرعون إذ كانت تحتاج بالأولى لسفن لفتحها وهذا يتبين من إشارة العماد الأصفهانى المعاصر عن القلعة وفيها يقول " قلعة آيلة وهى فى وسط البحر لا سبيل عليها لأهل الكفر " وكذلك أشار إلى الجزيرة باسم " جزيرة القلعة " (الأصفهاني، ١٩٨٧م، ج٥، ص ٦٩–٧٠)، وذلك حين التعرض لعملية فتح آيلة وعلى ذلك فإن هذا المؤرخ يؤكد أن القلعة هى تلك الكائنة بالجزيرة بالبحر ومن ثم فهى مكملة للقلعة التى على البر جهة الشمال الشرقى منها من حيث الدور الذى تلعبه.

ونظرًا لحساسية الموقف الصليبي السياسي في بارونية شرق الأردن بسقوط آيلة فقد تم تزويج والدة الملك القاصر همفري الرابع ستيفاني من رينو دى شاتيو Renaud de Châtillon

(٢) وقد ظل صلاح الدين وزيراً على مصر حتى وفاة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين فى الرابع عشر من سبتمبر ١١٧١م/ العاشر من محرم ٥٦٧هـ فتحول إلى أن أصبح نائبًا لنور الدين محمود عليها. انظر: (ابن واصل، ج١ ، ص١٧٩).

(Kinnamos, 1976, pp. 136–137; Tyre, 1943, Vol. II, pp. 224)؛ الذى ذكرته المصادر الإسلامية باسم "أرناط" "الإبرنس صاحب الكرك" (الأصفهاني، ١٩٧٩، ج٥، ص٦٩؛ ١٩٨٧، ص ٥٩–٦٣–٦٨–٧٨؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج١١، صفحات متفرقة؛ ابن العديم، ١٩٥١م، ج٣، ص٢٣٤–٢٣٥)، وحمل هذا اللقب لتوليته الوصاية والسيادة على البارونية فى (نوفمبر ١١٧٧م – يوليو ١١٨٧م) (La Roulx, 1894–1906, Vol.1, p. 355) وبالفعل فبمجرد إمساكه بالسلطة عنى بتجهيز جيش قوى كرد فعل علي الوحدة الإسلامية بانضمام مصر إلى الشام بوفاة نور الدين عام ١١٧٤م، وأصبح يهدد الطريق البري والعسكري الرئيسي الذي يربط بين جناحي الدولة الأيوبية في مصر والشام بالتعاون مع البدو (الدواداري، ١٩٧٢، ج٧، ص ٥١).

لم يدرك رينو حساسية الموقف العسكري بين الدولة الأيوبية والمملكة الصليبية (Hamilton, 1979, p. 105) فانتهج نهجًا خاصًا بنفسه يقوم على العدوان على المقدسات الإسلامية والحجاج والقوافل على مدى الأعوام التالية (ابن جبير، ١٩٥٥، ص ٦٨؛ أبو شامة، د–ت، ج٢، ص ٢٣)، وانتهز فرصة انشغال صلاح الدين بمحاولة ضم الموصل لتنفيذ مخططه، فقام بوضع خطة شاملة استخدم فيها عنصراً جديداً لم يكن مألوفاً لدى الصليبيين من قبل؛ ألا وهو استخدام الأسطول والقيام بحملة فى البحر الأحمر لغزو الحجاز وهذا لا يتأتى له إلا بالاستيلاء على آيلة والمقصود بها هنا البلدة دون قلعتها التي فشل في اقتحامها (ابن جبير، ١٩٥٥، ص ٣٠؛ ابن واصل، ١٩٧٧، ج٢، ص ١٢٧) بالرغم مما أعده من أسطول لهذا الغرض (Ernoul, 1871, p. 69; (Schlumberger, 1898, p. 204. لم يتوقف الخطر الصليبى عند حد آيلة إذ أخذ المخطط سبيله فى التنفيذ ، وقد اعتمد جانب منه على توجيه بعض السفن إلى ميناء عيذاب وعدد من البلاد الصغيرة المطلة على البحر فى ساحله الغربى وأغاروا عليها وقطعوا طريق التجار وشرعوا فى السلب والنهب مما أثار الرعب بين الأهالى " فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجياً قط لا تاجراً ولا محارباً " حتى " أشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر" (الأصفهاني، ١٩٧٩، ج٥، ص ٧٠؛ ابن الأثير، ١٩٧٩، ج١١، ص ٤٩٣)، وأكد أحد الباحثين على أن دور البدو الخائن كان واضحاً فى كل مراحل الحملة؛ فهم الذين ساعدوا فى نقل السفن الصليبية إلى آيلة وهم الذين أرشدوا رينو عن خبايا مسالك البحر الأحمر الغريبة تماماً على الفرنج بحيث ظهروا وكأنهم قراصنة هذا البحر فضلاً عن دورهم فى إرشاده وتعريفه بشعاب الحجاز الواعرة (Leiser, 1977, in J.A.R.C.E, Vol. XIV, pp. 94–96).

بذلك مس تهديد بحارة الصليبيين للحرمين أقصى ما يمس مشاعر المسلمين شرقاً وغرباً من أذى، حيث بلغ قدراً أكبر من الاستيلاء على القدس ذاتها منذ أكثر من ثمانية عُقودٍ خلت، ولذا كان رد فعلهم سريعاً؛ ففى مارس ١١٨٣م / ٥٧٨هـ نهض الأسطول المصرى ولاحق الصليبيين في كُلٍ من أراضي الحجاز على البر، ومحاصرة فلولهم في آيلة بالسفن (الأصفهاني، ١٩٧٩، ج٥، ص ٦٩–٧٠) ، أما رينو فقد أُجبر على تخليه عن آيلة وفر هاربًا نحو الكرك (Ernoul, 1871, p. 90)، أما البدو

فقرر صلاح الدين إخضاعهم بالقوة وتمكن من تغيير مواقفهم لصالحه (الأصفهاني، ١٩٧٩، ج٥، ص ٧١).

أبرزت الأحداث السابقة أهمية آيلة بالنسبة للحج والتجارة بشكلٍ أكثر وضوحاً، إذ ردد المؤرخان أبو شامة (د-ت، ج٢، ص ٣٦-٣٧) وابن واصل (١٩٧٧، ج٢، ص ١٣٠) وجود هدفين من وراء هذه الحملة: أولهما: قطع "طريق الحاج عن حجه" وضرب العالم الإسلامى فى الصميم بطعن المسلمين فى أقدس مقدساتهم، ثانيهما: هو احتكار تجارة الشرق الأقصى والمحيط الهندى؛ ذلك بالاستيلاء على ميناء عدن فى جنوب البحر الأحمر؛ وبذلك يصبح فى مقدور الفرنج بالسيطرة على آيلة فى الشمال وعدن فى الجنوب إغلاق البحر الأحمر فى وجه أعدائهم (عاشور، ١٩٦٣، ج٢، ص ٦١٩) وعلى المدى البعيد وبالرغم من فشل الحملة وتحولها إلى غارة للنهب والسلب فقد فتحت المجال أمام التوسعات الصليبية ومن ورثوا نشاطهم من البرتغاليين إلى أهمية منطقة البحر الأحمر وبلاد العرب والمحيط الهندى (Richard, 1976, Vol. XXXI, pp. 353-363).

وفى العام التالى وكرد فعل على سقوط آيلة للمرة الثانية، وغارات صلاح الدين العقابية على الكرك آثر رينو أن يوجه هجومه تلك المرة فى ١٩ مايو ١١٨٣م /٢٤ محرم ٥٧٩هـ ضد طرق سيناء، فخرج مع فرسانه من بلدة الداروم القريبة من العريش ووصلوا حتى منطقة فاران السينائية فتصدى لهم القائدان سعد الدين كمشة، وعلم الدين قيصر على طريق صدر-آيلة عند مكان ماء يسمى العسيلة وتمكنوا من ردهم (الأصفهاني، ١٩٧٩، ج٥، ص ١٤١-١٤٢)؛ وهذا التاريخ يتفق بعينه مع موسم عودة الحجيج إلى ديارهم فى مصر وما يليها من بلاد، مما يؤكد أنهم أصبحوا هم والقوافل المصاحبة لهم هدفاً سياسياً بالنسبة للهُجوم، وتأكدت لدى هذا القائد سياسته العدوانية على المسلمين مرتبطةً فى العادة بموسم الحج إما ذهاباً وإما إياباً.

عليه اهتم صلاح الدين بتشييد قلعة صدر (المعروفة حديثًا باسم الجندي أو الباشا) في سيناء على الطريق الحربي الذي حمل اسمه؛ لتأمين حركة الجيش والحجاج والتجار بين مصر والشام واستمر تشييدها من فبراير – مارس ١١٨٣م حتى ١١٨٧م (Mouton, 1994, Vol. XXVIII, pp. 71-77؛ عبد الملك، ٢٠٠٢، ص ٧٩-٨٢).

غدا رينو غيرُ قانعٍ باستئناف حركة التنقل بين مصر والشام، فبالرغم من الهدنة التي عُقدت لمدة أربع سنوات بين المملكة الصليبية والمسلمين فى ١١٨٥م /٥٨١هـ قام فى أواخر ١١٨٦م / شوال ٥٨٢هـ بمهاجمة قافلة إسلامية كانت فى طريقها من القاهرة إلى دمشق جنوب البحر الميت ورفض تسليم الأسلاب التى حصل عليها خارقًا شروط الهدنة (الأصفهاني، ١٩٨٧، ص ٧٧؛ أبو شامة، د-ت، ج٢، ص ٧٥، المقريزي، ج١، ق١، ص ٩٣؛ Ernoul, 1871, p. 96-97). وهكذا بات صلاح الدين قانعاً بضرورة القضاء على الوجود الصليبى ليس فى مناطق سيادة رينو فحسب؛ بل وفى مملكة اللاتين بأسرها (Mayar, 1987, Vol. III, pp. 197-203). ولم تمض سوى بضعة أشهر حتى هُزم الصليبيون فى مواقع عدة أشهرها موقعة حطين يوليو ١١٨٧م / ٥٨٣هـ التى أعقبها فتح معظم المدن الشامية، وعلى رأسها مدينة بيت

المقدس كى تلحق ببلدة آيلة المحررة.

طرأ تغير جذرى على الدور العسكرى والسياسى الذى تقوم به آيلة فى ظل بداية الحكم المملوكى وفى عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى (١٢٦٠-١٢٧٧م /٦٥٩-٦٧٦هـ) حينما أنشأ قلعة بساحل آيلة مُسيراً قافلة الحجاج المصرية على الطريق البرى الساحلى ، وقام بنقل الحامية المقيمة بقلعة آيلة الكائنة بالجزيرة إلى هناك بعد إبطال العمل بها (أبو الفدا، ١٨٤٠، ص ٨٧؛ القلقشندي، ١٩١٣-١٩١٤، ج٣، ص ٤٤٤). وعليه يؤكد أحد المؤرخين الحديثين على أن دور قلعة آيلة العسكرى بالجزيرة انتهى منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى فى حين اضطلعت قلعة آيلة البرية بمهمة حماية الحجيج والقوافل التجارية بدلاً منها حتى وقتنا الحاضر (نعوم شقير، ١٩٩١، ص ١٣).

٢. أثر استرداد آيلة على الحج والتجارة

يبدو دور آيلة واضحاً كذلك فى حركة الحج والتجارة الشامية والمصرية بحكم موقعها حتى من قبل الغزو الصليبى للمنطقة، حيث كانت جموع الحجيج تخرج فى العصور الإسلامية الأولى من أربع جهات: مصر ودمشق وبغداد واليمن وكان درب الحجيج المصرى مستخدماً من قبل أهل المغرب والسودان فضلاً عن مصر بعد تجمعهم فى القاهرة (المقريزي، ١٩٤٨، ج٢، ص ٢٦٥-٢٦٧). فإذا وصل الحجاج إلى القلزم خرجوا منها إلى نِخْل بسيناء ومنها إلى آيلة متجهين إلى حقل ثم عيون القصب، ويرحلون منها إلى المويلحة على ساحل البحر الأحمر ثم الأزلم التى ينتقلون منها إلى أكرى ومن أكرى ينتقل حجاج الركب المصرى إلى الحوراء ومنها إلى نبط ثم ينبُع ثم بدر ثم رابغ التى تعتبر ميقات أهل مصر؛ فيحرمون منها متجهين إلى خليص ثم يرحلون إلى عسفان ويتجهون منها إلى بطن مُر التى يستعدون فيها لدخول مكة (الجزيري، ١٩٦٤، ص ٤٤٩-٤٥٢، ٤٧٠-٤٧١). هذا وقد ظل هذا الطريق مفتوحاً حتى عام ١٠٦٢م /٤٥٤هـ حينما أغلق بسبب ما تعرضت له مصر من خراب إبان الشدة المستنصرية فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (١٠٣٧-١٠٩٥م /٤٢٧-٤٨٧هـ) (المقريزي، ١٩٤٨، ج٢، ص ٢٦٧؛ الشيال، ١٩٦٧، ج٢، ص ٢٤١)، وظل مغلقاً فيما بعد بسبب الغزو الصليبى لآيلة.

أما حجاج الشام وتجارها فكانوا يجتمعون فى بلدة آيلة أيضاً التى تعد نقطة التقاء الحجيج والقوافل الدمشقية وما يليها من بلاد المسلمين المجاورة ، وقد يتفق ذلك مع اجتماع الحجيج والقوافل المصرية المغربية وهى فى طريقها إلى الحجاز، وهكذا شكلت آيلة نقطة محورية للاتصال بين دمشق والقاهرة ، حيث كانت القوافل تعبر من خلالها بين جناحى الأمة العربية ، ومن ثم لم تتوقف أهمية الميناء على الإقليمية ؛ إنما ظلت آيلة لفترات طويلة تعد منتهى طريق الهند البحرى الدولى ، إذ أحياناً ما كانت السفن ترسو فى ميناء الحوراء على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر، أو في ميناء آيلة ؛ لتصل من خلالها السلع إلى بلاد الشام وموانيها (كاشف، ١٩٨٠، ص ٩٣-٩٤، ١٠٤). وكان الجغرافى المسلم المقدسى البشَّارى (١٩٠٣، ص ١٧٩) قد تنبه إلى ذلك وقال عن آيلة : "هى فرضة فلسطين ومنها يقع جلابهم" من البضائع المنقولة. ولما كان الطريق الممتد عبر آيلة من مصر إلى شرق الأردن

أثناء الغزو الصليبى أصعب وأبعد من طريق دمشق آيلة (ابن الأثير، ١٩٧٩، ج١١، ص ٥٦٨)، فإن مسئولية تأمين القوافل من الفرنج غدت تمثل هماً كبيراً بالنسبة لمن يحكمها نظراً لأن مدينتهم كانت أقرب، وفى موقع استراتيجى أفضل بالنسبة لطريق التجارة المذكور ، وعلى ذلك نلمس أن كلاً من الحج والتجارة قد أصبحا صنوين من الصعب الفصل فيما بين الناشطين فيهما والحريصين على إنجاز أيهما.

وفى العقود السابقة على استرداد صلاح الدين لآيلة فى عام ١١٧٠م/ ٥٦٦هـ مر أمن الطرق، كما هو ملاحظ بمرحلتين أساسيتين يفصل بينهما حدث سقوط آيلة فى يد الصليبيين عام ١١١٦م/٥١٠هـ وفى المرحلة الأولى منها غداة الغزو الصليبى لفلسطين تدرج الاهتمام تصاعدياً بمنطقة شرق الأردن؛ إذ تكررت حملات الملك بلدوين الأول على مدى تلك الفترة ، وتشابهت فى أن صاحبت كلاً منها عمليات تمشيطية للبدو القاطنين فى المنطقة الممتدة من عسقلان إلى شرق الأردن مروراً بآيلة ، وكانوا بحق منافسين حقيقيين للقوى الصليبية والإسلامية فى السيطرة على الطريق؛ بيد أن حملتى ١١١٥ –١١١٦م /٥٠٩ –٥١٠هـ تميزتا باستهدافهما إخضاع البدو بشكل صارم عن طريق إقامة مراكز دائمة للفرنج فى جوف بلادهم بدليل حرصهم على تأسيس إقطاعية شرق الأردن الصليبية كياناً صليبياً ثابتاً، وبسقوط آيلة فى أيديهم وضعوا الأسس التى ارتكزوا عليها لتقطيع أوصال العالم الإسلامى، وقد تنبه المؤرخون الصليبيون والمسلمون على حدٍ سواء إلى أن الحافز التجارى كان وراء توسعات الفرنج فى الجهات الجنوبية والشرقية للمملكة، حيث تهيأ لها الاتصال بالبحر الأحمر، وما يرتبط به من نشاطٍ بحرى، ومن ثم نجح الفرنج فى وضع أيديهم مباشرة على طرق القوافل؛ ولا سيما الطريق الممتد من دمشق إلى مصر عبر آيلة إلى البحر الأحمر، وكذلك المسالك المؤدية من مصر للحجاز ودمشق (Tyre, 1943, Vol. II, p. 506)، وبفضل تلك السياسة تم التحكم فى النقل والتجارة فى منطقة الشرق الأردن (Grousset, 1948, Vol. I, p. 315) وعبر المؤرخون المسلمون عن ذلك بقولهم "انقطعت السبل بالملاعين" (ابن الأثير، ١٩٧٩، ج١٠، ص ٧٢؛ الحريري، ١٩٨٦، ص ١٢)، وجديرٌ بالذكر أنه لم يكن فى وسع الصليبيين تنفيذ أى سياسة ناجحة لصالح تجارتهم إلا بعد عمل الترتيبات اللازمة مع البدو القريبين.

وفى المرحلة التالية المحصورة بين تاريخ سقوط آيلة فى أيدى الصليبيين حتى استردادها منهم نجح الفرنج فى الغالب فى السيطرة على طريق شرق الأردن –آيلة– القاهرة، أما البدو فقد انحصر دورهم مقارنةً بدورهم الفعال فى المرحلة الأولى وما قبلها فى مجال النقل والتجارة، وبينما لم ينجح الفرنج تماماً فى كبح جماحهم، وتمكن الحكام المسلمون أحياناً فى استخدام الطريق من خلالهم، ولذا استمرت التجارة الإسلامية تمر عبر هذا الطريق بشكل أو بآخر، ولكن فى ظروف صعبة نتيجة تهديدات الفرنج، وإذا ما قدر لها أن تنجو من هجماتهم، فإنها ما تلبث أن تقع فريسة أطماع البدو وجشعهم إن لم توُكَل إليهم حمايتها، وأمام تلك المنافسة من البدو فهناك من القرائن ما يشير إلى أن الصليبيين حرصوا باستمرار على توجيه

الضربات المتتالية لهم والعمل على إخضاعهم؛ حيث نجحوا فى إخضاع أو استقطاب العشائر التى كانت لها السيادة الحقيقية في المرحلة الأولى على الطريق المؤدية إلى آيلة (ابن منقذ، ١٩٣٠، ص ١٥-١٨)، ونظراً لأن سكنى البدو كانت قد امتدت من شبه جزيرة العرب إلى شبه جزيرة سيناء بلا حدود فاصلة واضحة فيما بينهم فما من شك أن إتمام عملية إخضاعهم يُعد أمراً مضنياً ، خاصة والدولة الصليبية ما برحت مرحلة النشأة (كاشف، ١٩٨٠، ص ٩٣)، ولذا لم يتم حسم أمر سيطرة الصليبيين على الطريق الواصل بين دمشق ومصر بشكلٍ كامل إلا فى مرحلةٍ متأخرة نسبياً بعد القضاء على ما بقى للبدو من دور فى حركة النقل عليه ، وهذا لم يتأت للفرنج إلا بأمرين: أولهما: إخضاع القبائل البدوية بشكلٍ شبه تام مقابل السماح لهم بممارسة حياة الرعى بحرية ، ودفع الإتاوة للفرنج من حينٍ إلى آخر (Holmes, in Setton, 1985, Vol. IV, pp. 31-35)، وثانيهما: استكمال سلسلة القلاع بداية من آيلة جنوباً، فقلاع وادى موسى ، وطفيلة ، والكرك ، مروراً بالشوبك. إذ كان استكمال بناء قلعة الكرك فى عام ١١٥٢م /٥٤٧هـ (شقير، ١٩٩١، ص ١٩٣-١٩٩) نقطة حسم لإقرار أوضاع الحركة التجارية الإسلامية فوق الطريق لصالح الفرنج.

تغير الموقف بالنسبة لطريق دمشق – آيلة – القاهرة باسترداد المسلمين لآيلة ١١٧٠م /٥٦٦هـ، والقضاء على السيادة الفرنجية هناك حيث بدت الأراضى الواقعة عند رأس خليج العقبة ، والنقب تمثل بوابة مصر الشرقية (غوانمة، ١٩٨٢، ص ٥٢؛ مؤنس، ١٩٩٥، ص ٢٣). ورغم ما حدث من تغير؛ إلا أن تهديدات الصليبيين ما كانت لها أن تتوقف ، بل أخذت تهديدات البدو المتواطئين والمنتفعين فى التصاعد ضد القوافل العابرة . وعندما قام صلاح الدين في عام ١١٧٣م /٥٦٨-٥٦٩هـ بتوجيه بعض الضربات العسكرية السريعة والمتفرقة ضد الصليبيين فى شرق الأردن نجده قد أقرنها ثم أتبعها بضرباتٍ مماثلة للعُربان القاطنين فى مناطقٍ قريبة حول آيلة، ويلاحظ أن هذه الإجراءات العسكرية امتدت بين شهرى ذى القعدة وصفر من العامين الهجريين المذكورين، وهى موسم حركة الحجيج إلى الحجاز ومنها (ابن شداد، ١٩٦٤، ص ٤٥)؛ ولذلك نلمس إلى أى حدٍ كان هذا القائد حريصاً على فتح طريق آيلة أمام الحج والتجارة ، كما نلمس حرص الصليبيين ومن ولاهم من البدو على إفساد موسم الحج بقطع الطريق ونهب القوافل المصاحبة.

والثابت أن التجارة كانت من أهم دعائم الثروة والمال فى مدن بلاد الشام ومصر فى بداية العهد الأيوبى لأسباب عدة منها؛ موقع هذه البلاد الجغرافى، وتوسطها دول العالم الإسلامى، ومن ثم فهى تقع بين الشرق والغرب، كما أنها تقع عند نهاية الطريق البرى لتجارة الشرق الأقصى منذ أقدم العصور، وكانت الحروب الصليبية قد عملت على ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، ومن ثم تفاقم الدور التجارى للمنطقة بصفةٍ خاصة فى عهد صلاح الدين (أحمد رمضان، ١٩٧٧، ص ١١٩)؛ حيث قصد التجار الإيطاليون ثغورها، ويقول القاضى الفاضل فى إحدى رسائله على لسان أبى شامة (د-ت، ج١، ص ٢١٢): "ومن هؤلاء الجيوش البنادقه والجنوية وغيرهم كل هؤلاء تارةٍ يكونون غزاة لا نطاق ضراوة ضربهم، ولا نطفأ

شرارة شرهم، وتارةٍ يكونون سفاراً يحتكمون على الإسلام فى الأموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الحكام المرهوبة، وما منهم إلا هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله". وما من شكٍ أن هذا النشاط التجارى الخارجى الملحوظ قد ترك آثاره على حركة التجارة بين كلٍ من مصر والشام عن طريق البر والمرور بآيلة، ومن ثم يمكن بدء استخدام الحجيج المصرى والمغربى والتجار للطريق البرى إلى الحجاز عبر وسط سيناء بداية من السنوات الأولى التى أعقبت فتح المسلمين الأول لآيلة بعد أن شاع بين المسلمين شرقاً وغرباً فتح الطريق البرى، ومع ذلك فقد ظل الطريق خاضعاً للتقلبات العسكرية بين كلٍ من الفريقين المتصارعين، ومدى قدرة الأيوبيين على الإمساك بزمام الأمور للسيطرة عليه.

على ذلك تمخضت فترة الصراع الإسلامى الصليبى التالية لاسترداد آيلة وقلعتها فى عام ١١٧٠م/ ٥٦٦هـ ، – التى شهدت بشكلٍ أساسى جهاد صلاح الدين حتى وفاته فى الثانى من مارس ١١٩٣م/ السابع والعشرين من صفر ٥٨٩هـ – عن بروز طريقه الحربى، على أنه استخدم أيضاً فى مجال نقل الحجيج والتجارة ، وقد أمكن تحديد المحطات المميزة للطريق التى مر بها صلاح الدين الأيوبى بداية من عام ١١٧٤م / ٥٧٠هـ ولعشر سنواتٍ تلت وهو فى طريقه أثناء الانتقال من مصر إلى الشام بغرض ضم دمشق. وكانت قلعة صدر بعد تطويرها تعد أوضح معالم هذا الطريق، كما يعُد الدرب الذى يمر بها أقصر الطرق التى تخترق وسط شبه جزيرة سيناء، ونظراً لأن صلاح الدين هو المؤسس الحقيقى لهذا الدرب؛ فقد عُرف باسمه (المقريزي، ١٩٩٩، ج١، ق١، ص ٥٨؛ Mouton, 1996, Vol. XXX, pp. 41–70) وقد تردد فى المصادر الإسلامية الإشارة إلى الطريق باسم (صدر – آيلة) طوال هذه الفترة (الأصفهاني، ١٩٧٩، ج٥، ص ١٤٢؛ أبو شامة، د–ت، ج١، ص ٢٤٠؛ ابن واصل، ١٩٥٣–١٩٦٠، ج٢، ص ١٨–١٩؛ المقريزي، ١٩٩٩، ج١، ق١، ص ٥٨–٨٠)، حيث تكرر ذكر استخدامه أثناء انتقال صلاح الدين أو قواته من مصر إلى دمشق عبر آيلة لمعاقبة رينو دى شاتيو لإغارته على تيماء والحجيج وذلك فى عام ١١٨٢م /٥٧٨هـ (أبو شامة، د–ت، ج٢، ص ٢٨؛ البنداري، ١٩٧٩، ص ١٩٥)، وخلال تحركات الجيش المصرى ووصوله إلى آيلة ومنها إلى شرق الأردن فى عام ١١٨٣– ١١٨٤م/ ٥٧٩هـ (ابن واصل، ١٩٥٣–١٩٦٠، ج٢، ص ١٤٠؛ المقريزي، ١٩٩٩، ج١، ق١، ص ٨٠). وكذلك أثناء قدوم الإمدادات المصرية إلى الشام فى عام ١١٨٤–١١٨٥م/٥٨٠هـ (المقريزي، ١٩٩٩، ص ٨٣، ٨٧)، وقد أقرن أحد الباحثين هذا الطريق بطريق درب الشعوى التى تخترق وسط سيناء مارة بمعالم طريق صلاح الدين ذاتها ، وبصفة عامة تتميز هذه الطريق بتوفر موارد الماء عليها علاوة على علف الإبل والدواب ، كما كانت تُقطع فى ستة أيام (نعوم شقير، ١٩٩١، ص ٢٦٥). وهى مدةٌ قصيرة نسبياً.

ولحسن الحظ فهناك نصٌ يؤرخ لأحداث عام ٥٧٦هـ /١١٨٠–١١٨١م يبين لنا معالم طريق صلاح الدين الجديد فى سيناء نقله لنا أبو شامة (د–ت، ج٢، ص ٢٠) عن العماد الكاتب الأصفهانى، وهو عبارة عن قصيدة يقدم الأصفهانى فيها قائمة كاملة

بالمحطات الواقعة عليه:

"وردنا من الزيتون حسمى وآيلة .. وجزنا عقاباً كان مسلكها وعراً

إلى قلتة الراعى إلى نابع إلى .. جراول فالنّخل الذى لم يزل فقراً

إلى منزل فى روضة الجمل اعتدت .. به عيسنا فى صدر شارحه صدراً

ودون حثا حثثنا ركابنا .. عيونٍ لموسى لم يزل ماؤها مراً

هناك تلقانا الوفود ببرهم .. فسروا بنا نفساً وزادوا بنا بشراً"(٣).

وعلى ذلك يكون عدد محطات الطريق قد بلغت العشر محطات (Mouton, 1996, p. 43)، أما إذا انضافت المحطات السابقة عليها بداية من القاهرة وصولاً إلى السويس فتبلغ ست محطات، فى حين تبلغ من آيلة إلى دمشق اثنتى عشرة محطة، وكان يلزم من تسعة عشر إلى ستة وعشرين يوماً لقطعها (أبو شامة، د–ت، ج٢، ص ١١٤؛ المقريزي، ١٩٩٩، ج١، ق١، ص٦٥).

بذلك أصبح طريق صلاح الدين يمثل المحور البرى الأساسى الذى يربط مصر بالشام فى عهده، وقد أضفى عليه مزيداً من الأهمية عدم اقتصاره على خدمة تحركات جيوش هذا القائد فحسب؛ بل كان الأهالى يسلكونه أيضاً ويفضلونه عن أى دربٍ آخر، وما من شك أن تمتعه بقدرٍ كبير من الأمن هو الذى أضفى عليه هذا التميز؛ إذ كانت القلاع الواقعة عليه حماية وضماناً لأمن رواده فى وقت كان محفوفاً بأخطار الصليبيين خاصةً من قبل رينو دى شاتيو. وفضلاً عن ذلك كان على المسلمين أثناء عبورهم سيناء أن يخشوا هجمات البدو بنفس القدر الذى يخشون فيه أخطار الصليبيين إن لم يكن أشد، ونظراً لارتياد العسكر باستمرار للطريق؛ وجد التجار والأهالى فيهم الحماية الكافية؛ ومما يؤكد ذلك ما لوحظ من مرافقة تجار ورجال مدنيين ومعهم نسائهم وأطفالهم عسكر صلاح الدين فى ذهابهم وإيابهم بين القاهرة ودمشق (Mouton, 1996, p. 44)، وهناك حادثة تبرهن على هذا الأمر، ذلك أنه فى عام ١١٨٤م/ ٥٨٠هـ قام والى إقليم الشرقية فى مصر ومعه بعض الجند بمرافقة قافلة مصرية من القاهرة إلى آيلة نظراً لأن منطقة صدر كانت فى زمام ولايته، كما قام بمرافقة قافلة قادمة أخرى فى طريق العودة إلى القاهرة (المقريزي، ١٩٩٩، ج١، ق١، ص ٦٤؛ ١٣٢٤هـ، ج١، ص ١٨٥؛ القلقشندي، ١٩١٣–١٩١٤، ج١١، ص ٤٢). وهذه الحادثة تشير إلى أن صلاح الدين نجح فى وضع نظام أمنى على طريقه فى وسط سيناء، وقد أثبت هذا النظام نجاحاً نسبياً لأمن القوافل، بيد أن امتداد الطريق فى شرق الأردن ظل يعانى من خطر الصليبيين على القوافل.

وفى نظرةٍ تقييمية لطريق صلاح الدين والدور الذى نشط به فى مجال حركة الحج والتجارة الإسلامية، وما إذا كان استخدامه بمثابة حالة استثنائية ملازمة لفترة حكم هذا السلطان؛ فإن الشواهد التاريخية تبين لنا هذه الأمور؛ إذ يذكر الرحالة ابن جُبير أنه أثناء رحلته فى عام ١١٨٣م /٥٧٩هـ بحراً من جدة إلى مصر حيث قضى فترة ثلاثة وعشرين يوماً فى عيذاب "محتسبة عند الله عز وجل لشظف العيش، وسوء الحال، واختلال الصحة؛ لعدم الأغذية

(٣) يمكن إجمال أسماء المحطات في هذه القصيدة، في الآتي: محطة قلعة أيلة، العقاب، قلتة الراعي، نابع، جراول، نخل، روضة الجمل، قلعة صدر، وادي الحثا، ومحطة عيون موسى. (شقير، ١٩٩١، متفرقات).

الموافقة. وحسبك من بلدٍ كل شئ فيه مجلوب حتى الماء ، والعطش أشهى إلى النفس منه، وأعظم أجور الحجاج على ما يكابدونه ، ولا سيما فى تلك البلدة الملعونة. ومما لهج الناس بذكر قبائحها ..... " وقارن الرحالة بين هذا الطريق البحرى (ابن جبير، ١٩٥٥، ص ٤٦) وطريق صدر – آيلة البرى ، فأردف بالقول : " أراح [الله] إليه الحجاج منها بعمارة السبيل التى من مصر على عقبة آيلة إلى المدينة المقدسة ، وهى مسافة قريبة يكون البحر منها يميناً وجبل الطور المعظّم يساراً ، ولكن للإفرنج بمقربةٍ منها حصن مندوب يمنع الناس من سلوكه" (ابن جبير، ١٩٥٥، ص ٤٦). وبذلك فالرحالة يؤكد على أن الطريق البرى عبر آيلة مُريح أكثر للحجيج والقوافل، ولا يعكر الصفو لسلوكه إلا وجود تهديدات للأمن عليه من قبل الفرنج.

فهم ج. .م . موتون (Mouton, 1996, p. 43) المهتم بدراسة طريق صلاح الدين المذكور ما أورده ابن جُبير على أن الطريق البحرى جدة – عيذاب – قوص هو المفضل على الإطلاق لأخطار رينو دى شاتيو المهددة للطريق البرى، واستند لتأكيد ذلك على حادثة انتقال الموكب المصاحب لجثمان كلٍ من والد وعم صلاح الدين بغرض دفنهما فى المدينة المنورة التى تم تفضيل الطريق البحرى فيها (المقريزي، ١٩٩٩، ج١، ق١، ص ٥١، ٨٧) إلا أنه يسهل على المتمعن فى قراءة نص ابن جبير اكتشاف أن الأمر على النقيض من ذلك؛ إذ غدا طريق صلاح الدين يُعد الطريق المفضل لمن يرغب من الحجيج وغيرهم فى الوصول إلى الحجاز، فى حين ظل الطريق البحرى يمثل الطريق الثانوى المرهق والبديل إذا ما اختل الأمن على الطريق البرى. كما حدث بشكلٍ استثنائى عند مهاجمة الصليبيين لقوافل الحجيج، وعليه فيُعد سلوك الطريق البرى هو القاعدة، بينما بقى سلوك الطريق البحرى بمثابة الاستثناء، ولظروفٍ طارئة. وإضافة لذلك هناك مهمة أساسية أخرى قام بها الطريق البرى المذكور لم يُنافسه فيها الطريق البحرى ألا وأنه كان يُعد الطريق الأساسى للقوافل المارة به القادمة من القاهرة إلى دمشق والعكس لمدة عقدين من الزمان بعد الاسترداد.

وفى المرحلة التالية لعهد صلاح الدين وفتوحاته المجيدة المؤثرة حدثت بعض التطورات على طريق صدر – آيلة، فبعد إزاحة الجانب الداخلى من الكيان الصليبى فى مملكة بيت المقدس تجدد الاتصال بين مصر والشام عبر الطريق الساحلى (Mouton, 1996, p. 43) عبر عسقلان؛ ففي أوائل القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادي وردت شهادةٍ باستخدام طريق صلاح الدين البرى مقروناً بالطريق الشمالى الساحلى حيث وُصف بالطريق الشاق نظراً لأنه غير ممهد (الجزيري، ١٩٦٤، ص ٤٨٥)، ومن ثم يتبين أن الحجاج والتجار استمروا فى استخدام طريق صلاح الدين ولكن بشكل أقل كثافة عن ذى قبل، كما ورد فى المصادر الجغرافية المعاصرة أن قلعة صدر وصفت بالخراب فى الفترة ذاتها (ياقوت، ١٩٧٥، ج٣، مادة صدر). ولما كانت هذه القلعة تُشكل الدُعامة الأمنية الرئيسية على طريق صلاح الدين من أخطار البدو داخل سيناء فقد أكد بعض الباحثين على أن حركة الحجيج والقوافل توقفت على الطريق البرى عبر آيلة بعد صلاح الدين (عبد الملك، ٢٠٠٢، ص ١١٤)، إلا أنه فيما يبدو كان توقفاً مرحلياً إذا ما كان هناك

توقف، فهناك ما يدل على تعمير القلعة مرةً أخرى فى عام ١٢٤٠م /٦٣٨هـ حيث استخدمت كمكان أمين لنفى الخصوم السياسيين للملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠-١٢٤٩م / ٦٣٨-٦٤٧هـ) (ابن واصل، ١٩٧٧، ج٥، ص ٢٧٦). مما يُعد مؤشراً على استئناف القلعة لدورها الأمنى ضد البدو واستمرار حركة الحجيج والقوافل خلال العهد الأيوبى ولكن بشكلٍ مذبذب ومتقطع وبذلك يمكن القول أن الحركة على طريق صلاح الدين لم تكد تتوقف حتى تتواصل طوال فترة حكم الأيوبيين.

وعلى هذا النحو يمكن تصحيح الآراء التى تتجه نحو الإقرار بأن طريق الحج البرى صدر – آيلة (طريق صلاح الدين) لم يُعرف إلا فى عهد الظاهر بيبرس البندقدارى (شقير، ١٩٩١، ص٢٦٢). حينما استخدمه وهو فى طريق الحج عام ١٢٦٨م / ٦٦٦هـ (أبو الفدا، ١٨٤٠، ص ٨٧؛ د-ت، ج٤، ص ٤٠)، وكان السلطان الناصر محمد بن قلاون فى فترة ولايته الثالثة (١٣٠٩-١٣٤١م /٧٠٩-٧٤٢هـ) من أبرز الشخصيات التى سلكت الطريق ذاته بعد كل من صلاح الدين والظاهر بيبرس بغرض الحج وذلك فى عام ١٣١٩م /٧١٩هـ (أبو الفدا، د-ت، ج٤، ص ٤٠). وأياً كان الأمر فقد كان انحسار الخطر الصليبى، ثم زواله من الطريق دافعاً أساسياً لتنشيط الحركة عليه؛ فتدرج استخدامه لأغراضٍ عسكرية ومدنية فى عهد صلاح الدين إلى استخدامه لتأمين الطريق للحج والتجارة بشكلٍ متقطع فى بقية العهد الأيوبى ثم تفاقم دوره مع بداية الدولة المملوكية بحيث بدا وكأنه الطريق الأصيل الذى يُغنى تماماً عن الطريق البحرى لمن يرغب فى نقل الحج والتجارة بين كلٍ من مصر والحجاز وأحياناً الشام.

٣. أثر انفتاح المغاربة على المشرق الإسلامى عبر آيلة.

من الثابت تاريخياً أن هناك عديدٌ من الروابط جمعت بين مسلمى المشرق والمغرب الإسلاميين، وفضلاً عن الأواصر الأنثروبولوجية والثقافية ورابطة الدين التى جسدها الحج (قاسم، ١٩٨٠، ص ١٢٥، ١٤١، ١٥٧)؛ فقد لعبت التجارة دوراً مهماً فى هذا المضمار؛ إذ غدا طريق القلزم وبرزخ السويس مطروقاً من التجار بين الجناحين منذ أواخر القرن التاسع الميلادى/ الثالث الهجرى، وتحدث الجغرافى ابن خرداذبه عن ذلك وذكر شيئاً عن دور تجار اليهود الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلية أنهم كانوا يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً ، وتناول كذلك السلع التى كان يتم الاتجار فيها بين بلاد تلك الجهات إضافةٍ إلى بلاد الشرق الأقصى وجانب من البلاد الأوروبية (ابن خرداذبة، ١٨٨٩، ص ١٥٣-١٥٤). وقد استمر الطريق نفسه فى القيام بهذا الدور فى القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى ، مما أبرز دور مصر المتميز فى التجارة (كاتشف، ١٩٨٠، ص ١٠١-١٠٢)؛ إذ أخذ حكام مصر يبدون اهتماماً كبيراً بالبحر الأحمر، فاهتموا بالطرق الصحراوية التى تستخدمها القوافل، كما عنوا بإقامة الحاميات فيها، كذلك حفروا الآبار على طول تلك الطرق، وعملوا على تأمين الطرق البحرية حتى أواسط العهد الفاطمى (أبو المحاسن، ١٩٢٩-١٩٤٣، ج١٢، ص ١٠٨-١٠٩، ج١٢، ص ٣٥٥).

حدث مزيد من التقارب بين مسلمى الغرب حيث

المغرب والأندلس ومسلمى المشرق حيث مصر والشام والحجاز فى ظل قيام دولة المرابطين تحت قيادة زعيمها أبى يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتونى الصنهاجى (١٠٨٧-١١٠٦م/٤٨٠-٥٠٠هـ) إذ نجح فى التوسع بدولته بحيث ضمت الأندلس إلى بلاد المغرب فى دولة واحدة ساد فيها المذهب المالكى وكان شعارها الجهاد بعد أن تمكن من الانتصار على ملك قشتالة وقائد الأسبان الفونسو السادس فى معركة الزلاقة أغسطس ١٠٨٦م/ ربيع آخر ٤٧٩هـ (سالم، ١٩٦٦، ص ٦٩١، ٧١٧-٧٢٧)[٤]، كما تم له القضاء على دول الطوائف بالأندلس ، ودعا ابن تاشفين للخليفة العباسى على المنابر وبذلك أصبح للعباسيين السيادة الروحية على تلك البلاد الغربية بعد انقطاعٍ طويل، وخلفت دولة المرابطين فى حكم المغرب والأندلس دولة مغربية أخرى هى دولة الموحدين. وقد قامت هذه الدولة على أساس دعوة دينية إصلاحية ، طابعها التجديد والعظمة ،وهدفها تحقيق وحدة إسلامية شاملة. ومؤسس هذه الدعوة هو أبو عبد الله بن تومرت السوسى الذى اطلع بنفسه على أمور المشرق حينما طاف بعواصم الحجاز والعراق والشام ومصر طلباً للعلم ولمس حالة ضعف المجتمع الإسلامى المصاحب للغزو الصليبى. وأيقن أن علاج هذه الحالة يقتضى إنشاء خلافة إسلامية جديدة تضم تحت لوائها العالم الإسلامى كله. وقد أثمرت دعوته عن قيام دولة للموحدين تحت زعامة بن تومرت الذى أوكل قيادة الجيش إلى عبد المؤمن بن على المتوفى (١١٦٣م / ٥٥٨هـ) ، ثم تولى الخلافة ابنه يعقوب المنصور (ت ١١٩٩م/٥٩٥هـ) الذى عاصر صلاح الدين فى مصر والشام (العبادي، د-ت، ص ٩٧-١٠٠، ١٠٤-١١٧).

كانت مصر ولا تزال الطريق إلى حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، حيث كان يقصدها حجاج الأندلس و المغرب ومسلمو البربر فالسنغال فبلاد التكرور والسودان الغربى والشرقى، كما كان يقصدها كثيرٌ من أهالى الشام والترك والقوقاز وغيرهم من مسلمى روسيا وسيبيريا وجزائر البحر المتوسط (البتنوني، ١٣٢٩هـ، ص ٢٧-٢٨)، وبعد فتح آيلة (١١٧٠م/ ٥٦٦هـ) كان هؤلاء الحجيج قد عاودوا الكرة فى الالتقاء بالحجيج المصرى ويجتمعون معهم بغرض الوصول إلى الحجاز إمام براً أو بحراً حسبما اعتادوا فى العقود السابقة، وأخذ ذكر المغاربة كحجاج يتردد عند الإشارة إلى أولئك الذين يفضلون استخدام درب الحج المصرى البرى عبر آيلة؛ بدليل وجود موضع لدفن موتاهم يعرف باسم "قبر المغربية" تم رصده على طريق صلاح الدين بالقرب من آيلة جهة الغرب (شقير، ١٩٩١، ص ٢٠٤)، ولعل الرواج التجارى الذى يلقاه الحجاج المغاربة والأندلسيون فى موسم الحج هو ما جعل كثيراً منهم إن لم يكونوا كلهم مشتغلين بالتجارة عند ذهابهم لتأدية الفريضة يقومون بامتهانها بعد عودتهم من رحلة الحج ؛ نظراً لما يجدونه من مردودٍ مادي (النبراوي، ٢٠٠٢، ص ١٦٢، ١٨٦-١٨٨)، ومن المغاربة والأندلسيين من كان يؤثر البقاء فى الحجاز بصفته مجاوراً ، وكانت مدة الجوار تطول أو تقصر حسب رغبة كل منهم ، فكان منهم فى عهد صلاح الدين على سبيل المثال

(٤) وتُعد معركة الزلاقة من المعارك الفاصلة فى التاريخ لما ترتب عليها من آثار وكان المسلمون تحت قيادة بن تاشفين وكان المغاربة قد خرجوا تحت قيادته لمؤازرة إخوانهم ملوك الطوائف فى الأندلس وبوحدتهم تمكنوا من الانتصار، راجع: (البستانى، ١٩٨٧م، ص ١٨-٣٥).

المجاور المغربى أبو إبراهيم إسماعيل بن وجماتن الرجراجى المتوفى (٥٩٥هـ /١١٩٨م) التى طالت رحلة حجه نحو العشرين عاماً (ابن الزيات، ١٩٥٨، ص٣٥١-٣٥٢). والمجاور محمد عبد عمر بن يوسف الأنصارى القرطبى المالكى المعروف بابن مغايظ أقام فى مصر فترة وعاش من (٥٦٩ – ٦٣١هـ/ ١١٧٣ – ١٢٣٣م)، وكان إماماً عادلاً جاور بالمدينة المنورة (السيوطي، ١٩٧٩، ج١، ص ٢٠١-٢٠٢). على ذلك يلاحظ من خلال تراجم عديد من المجارروين أن كثيرًا منهم قد كونوا أسراً أثناء مجاورتهم واستقروا بالأراضى الحجازية حتى الممات وذلك بعد أن تيسر أمامهم الطريق إلى الأراضى الحجازية باستخدام طريق صلاح الدين.

كان لسقوط ميناء آيلة فى يد الصليبيين ثانية فى عام ١١٨٢م/ ٥٧٨هـ ونفوذهم منه إلى شواطئ البحر الأحمر بأسطولٍ غريب على أهالى المناطق بغرض الاعتداء على أراضى الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة، ما جعل المسلمين فى شتى بقاع الأنحاء شرقاً وغرباً ينفرون من الصليبيين، بل رأى المسلمون فى تهديد الحرمين نذيراً لقيام الساعة وعلامة على "غضب الله لفناء بيته المحرم" (ابن واصل، ١٩٣٥-١٩٦٠، ج٢، ص ١٢٩)، وتردد أنه " لابد من تطهير الأرض من أرجاسهم والهواء من أنفاسهم بحيث لا يعود منهم مخبرٍ يدل الكفار على عورات المسلمين" وفى هذا الصدد نجد إشارات فى المصادر الإسلامية لها مغزاها ولها ما وراءها. فقد سجل أهل المغرب والأندلس فى كتاباتهم أسفهم لرزوح القدس تحت السيطرة الصليبية، وذهب بعضهم إلى تفسير جانب من آيات القرآن الكريم وقت أن كانت القدس ما تزال فى أيديهم "فإنها ستُفتح وأنهم سيُغلبون" (العليمي، ١٩٧٣، ج١، ص ٢٩٢).

وكان قد ورد فى ثنايا المادة التاريخية المتعلقة بحملة الحاجب حسام الدين لؤلؤ البحرية الرادعة لأسطول رينو أنه "عمر فى بحر القلزم مراكب بالرجال البحرية ذوى التجربة من أهل النخوة للدين والحمية" (أبو شامة، د-ت، ج٢، ص ٣٥). لكن من هم هؤلاء الذين ينطبق عليهم صفة ذوى التجربة؟ نجد الإجابة على هذا السؤال عند ابن جبير الأندلسى (١٩٥٥، ص ٣٠) الذى عاصر تلك الحادثة أثناء رحلة حجه. حيث قال فى دجر الفرنج " رفع الله عاديتهم بمراكب عُمرت من مصر [أى القاهرة] والإسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد من المغاربة البحريين، فلحقوا العدو، وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم. وكانت آية من آيات العنايات الجبارية ، وأدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان، نيف على شهرٍ ونصف أو حوله. وقتلوا وأسروا، وفرق من الأسارى على البلاد ليُقتلوا بها". إذًا كان الأنجاد هم المغاربة وعلى ذلك فهل كان هؤلاء المتأثرون بالأفكار التى ملؤها الجهاد بموجب الدعوة الموحدية متواجدين لكونهم مجرد خبراء فى الأسطول الأيوبى وبشكلٍ طارئ؛ أم كان وجودهم بمثابة ظاهرة جديدة داخل المجتمع الأيوبى؟

فى الواقع هناك بعض الأدلة المصدرية والإشارات التى من خلالها يمكن التوصل إلى ردٍ على هذا السؤال أيضاً ؛ فإن التفاصيل الوصفية لقلعة صدر تدلل على أنها استخدمت كرباط وهو نظام حربى مغربى يقوم على أساس مرابطة المجاهدين

والمتصوفة فى القلعة وثمة شاهد على ذلك، فمن الثابت أن أحد المجاهدين المغاربة وهو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأنصارى الحاجى الصوفى قد رابط بالقلعة فى الفترة من (١١٧٤ –١١٨٤م /٥٧٠ – ٥٨٠هـ) (المنذري، ١٩٧٥–١٩٧٦، ج١، ص ٢٥٠–٢٥١)، وأشار الرحالة ابن جبير (١٩٥٥، ص ١٠) أيضاً إلى ما أبداه صلاح الدين من عناية بالوافدين منهم إلى الإسكندرية حتى أنه خصص للمغاربة مساكن " وعين لأبناء السبيل من المغاربة خُبزين لكل إنسان فى كل يوم ..... قد ينتهى فى اليوم إلى ألفى خبزه أو أزيد " ، وفى القاهرة خصص لهم جامع أحمد بن طولون للإقامة فيه ووضع عليهم حاكماً منهم، ومجموعة هذه الإشارات تبين أن وجود المغاربة فى مصر بالقرب من ساحة القتال مع الفرنج كان قد اتخذ صفة الاستقرار الاستمرارية ولذا فإنهم كانوا متواجدين بأعدادٍ كبيرة بالفعل وقت أن داهمت مراكب رينو دى شاتيو شواطئ البحر الأحمر، مما مكنهم فى التدخل لصده فى الوقت المناسب بروحٍ من الجهاد.

وما برحت المصادر الإسلامية تقدم المادة التاريخية الدالة على انتقال أعداد من المغاربة إلى البلاد المشرقية بغرض الإقامة أو الجهاد إذ أشارت إلى سُكنى المغاربة والأندلسيين فى أربطةٍ خُصصت لهم مثل الرباط الذى خصصته والدة الخليفة العباسى الناصر لدين الله أبو العباس أحمد (١١٨٠ – ١٢٢٥م/ ٥٧٥ – ٦٢٢هـ) وقد عُرف باسم العطيفية ، وتم بناؤه فى عام ١١٨٣م /٥٧٩هـ وكذلك رباط ربيع بمكة الذى أوقفه عليهم الأفضل نور الدين أبى الحسن على بن صلاح الدين الأيوبى (المتوفى سنة ١٢٢٥م/ ٦٢٢هـ) فى عام ١١٩٨م / ٥٩٤هـ (الفاسي، ١٩٩٨، ج١، ص ١١٨، ١٢١–١٢٢؛ ابن بطوطة، ١٩٩٢، ص ١٥٣–١٥٤)، أما فى الشام التى فى صدامٍ مباشر مع الفرنج فيذكر ابن جبير أن نور الدين كان قد أوقف على طلاب العلم المغاربة زاوية[٥] كانت تُدرس فيها العلوم على المذهب المالكى فى غربى الجامع الأموى بدمشق، وقد لقيت هذه الطائفة معاملة طيبة من أهل الشام وحكامهم مما دفع الرحالة غير مرة إلى التأكيد على ذلك مبيناً أنهم كانوا يؤتمنون بالضياع الشامية وغيرها حتى عن أهل البلد أنفسهم ، وقدم لنا أسباب تعاطف السلطة الإسلامية فى الشام معهم ؛ فحينما توجه مع رفقائه فى طريق العودة مر ببلدة تبنين الصليبية ، وعند نقطة جمع الضرائب كان " أكثر المعترضين فى هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين " وأردف ذلك بتوضيح السبب فقال : " سيرة أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله أحد الحصون ، فكان لهم فى أخذه غنى ظهر واشتهر ، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ، ألزموها رؤوسهم ، فكل مغربى يزن على رأسه الدينار ... " وقال الإفرنج: "أن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئاً ، فلما تعرضوا لحربنا ، وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا ، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم . فللمغاربة فى أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل فى نكايتهم

(٥) اختلفت الزوايا فى نظمها وتقاليدها كما هو الحال فى الخوانق والربط إذ لا يربطها نظام أو أسلوب موحد وفى العادة كان ينزوى فيها شخص معين للعبادة تنشأ باسمه وتصبح مقراً له ينقطع فيها وملجأ لبعض مريديه. انظر: (أحمد رمضان، ١٩٧٧م، ص ١٥٥)؛ وتتألف الزاوية من عناصر أساسية هى: غرفة للصلاة بها محراب، ضريح تعلوه قبة لولى أو شيخ الزاوية، غرفة مقصورة على تلاوة القرآن، مكتبة أو مدرسة لتحفيظ القرآن، غرفة مخصصة لضيوف الزاوية أو للحجاج المسافرين والطلبة، قرافة ملحقة تضم قبور ساكنى الزاوية . انظر: (خورشيد وآخرون، ١٩٦٦، ج١٠، ص ٣٣١-٣٣٢، مادة زاوية).

العدو ، يسّهله عليهم، ويخفف عنتهم عنهم " وقد أسف الرحالة عند الحديث عن المغاربة فى سجون الفرنج الذين وقعوا أسارى أثناء المعارك وتعرض إلى سُبل افتدائهم (ابن جبير، ١٩٥٥، ص ٢٦٠، ٢٦٧، ٢٧٤-٢٧٥، ٢٨١، ٢٩١، ٢٩٧-٢٩٨) مؤكداً بذلك على بروز العنصر المغربى كمجاهدين فى ساحة القتال الشامية ضد الصليبيين.

من ناحية أخرى؛ فقد حرص بعض المغاربة والأندلسيين على الهجرة إلى الحجاز والشام للعمل بتلك البلاد كمزارعين فنقلوا خبرتهم فى هذا المجال من بلادهم إلى ضياع مكة ودمشق وما ولاها من بلاد تبركاً بالحجاز ، وتمكنوا من تكوين طوائف للمغاربة فى البلاد المشرقية (ابن جبير، ١٩٥٥، ص ١٠١، ١٥٠). بذلك يقدم لنا الرحالة الأندلسى الدلائل على أن المغاربة لعبوا دورا ملموساً فى حركة الجهاد الإسلامى التى نادى بها نور الدين محمود وصلاح الدين ضد الصليبيين حتى صاروا يمثلون العنصر الأشد بأساً على الفرنج بحيث خصوهم هم بالذات بمعاملة سيئة كما دلل المغاربة على قدراتهم الحربية خاصة فى المجال الذى يجيدونه ألا وهو سلاح البحرية؛ وقد جاءت استجابتهم سريعة خلال السنوات القليلة التالية لفتح طريق آيلة أمام وصولهم إلى الشام ، ثم عندما قدموا خبرتهم فى مجال تركيب السفن والإبحار بها فى البحر الأحمر ، كذلك تضمنت هذه الدلائل أن المغاربة وفدوا بغرض إيجاد فرص للعمل فى الضياع أو كفقهاء أو بغرض التعلم على يد العلماء المشرقيين والمغربيين سواء فى مصر أو الحجاز أو الشام وأيضاً أكدت على عملهم بالتجارة الدولية حيث خضعوا لضرائب مكس تبنين الصليبى وفضلاً عن هذا وذاك فقد كان السعى لأداء فريضة الحج دافعاً كافياً لهم للقدوم إلى المشرق الاسلامى وهناك وجدوا السبيل أمامهم مفتوحاً لإتمام أى من تلك المهام والأنشطة، بدليل رصد ظاهرة وجود جماعات مهاجرة منهم إلى كل من مصر والحجاز والشام بيد أن نزعة الجهاد ضد الصليبيين كانت غالبة ، ويلاحظ أن هذا الدور للمغاربة لم يكن معروفاً وعلى الأقل لم ترصده المصادر فى العقود السابقة على فتح طريق آيلة (١١٧٠م/٥٦٦هـ) أمامهم ،ولذا فهي ظاهرة واكبت أواخر عهد نور الدين محمود وعهد صلاح الدين. وهذا ولا شك أن رعاية الحُكام من أمثال هذين المجاهدين – الذين كانوا علي المذهب الشافعى السُنى – للمغاربة من أهل السُنة تعد عاملاً مشجعاً أساسياً لهم للاستقرار في مصر والشام خاصة وأن فى ذلك تدعيم للوجود السُنى من أجل القضاء علي أى نفوذ شيعى باقٍ منذ أيام الدولة الفاطمية.

هذا كان على المستوى الشعبى، أما على مستوى الحُكام فقد حاول صلاح الدين توثيق علاقته بالخلافة الموحدية فى المغرب وطلب من الخليفة الموحدى المنصور تدخل الأساطيل الموحدية لوقف الإمدادات الصليبية إلى الشرق، غير أنه لم يستجب لذلك كما هو واضح نظراً لأن صلاح الدين لم يعترف بخلافته ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين، بيد أن ذاك الاختلاف بين العاهلين لم يحل دون تضامن شعوبهما فى السراء والضراء (العبادى، د-ت، ص ١١٨). إذ أن عدد كبير من المغاربة قد أسهموا فى الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم المشارقة، واستشهد منهم عدد كبير دفن فى فلسطين (العليمي، ١٩٧٣، ج١-٢، صفحات متفرقة) بعد

ما انفتح أمامهم الطريق للوصول إليها وكان بدرجةٍ أوضح من خلال آيلة بعد الفتح ومن ذلك ما ذهب إليه ابن خلكان (١٩٦٧- ١٩٦٨، ج٢، ص ٤٣١-٤٣٢) من ترديد خبر موت الخليفة يعقوب المنصور الموحدى فى فلسطين بعد أن ترك خلكه وبلاده ورحل إلي الأراضى المقدسة لجهاد الصليبيين، وأكد المؤرخ على أنه رأى قبراً لشهداء المغاربة بالقرب من بلدة المجدل وأن الناس هناك يعتقدون فى أنه يضم قبر يعقوب ملك المغرب يتبركون به. ثم عاد المؤرخ ذاته وأكد أن المنصور مات ودفن بالمغرب. ولا شك أنه من المتفق عليه أن هذه الروايات لا تدخل إلا فى نطاق الأساطير الشعبية، وعليه فلعل هذه المقبرة كانت للمغاربة الذين استشهدوا في فلسطين ثم أطلق عليها اسم يعقوب المنصور كرمز تذكارى لها باعتباره المجاهد الأكبر، وسلطان هؤلاء المجاهدين المغاربة (العبادي، د-ت، ص ١١٩). وأياً كان الأمر فهذه مادة تاريخية إضافية تعكس حقيقة الوجود المغربى فى أرض الجهاد، أرض فلسطين، كما تعكس التقاء المغرب بالمشرق من جديد.

وفى المرحلة التالية نرصد عدداً من النتائج السياسية والحضارية؛ ثقافية واجتماعية كانت قد ترتبت على انفتاح المغاربة على المشرق الإسلامى وهجرتهم إليه عقب استرداد آيلة؛ فقد كانت مناسبة فتح بيت المقدس فى عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ جديرة بجذب أعداد من المسلمين بغرض زيارتها. فمن المؤرخين من يذكر عن ذلك " زُينت بلاد الإسلام لفتح بيت المقدس وتسامع الناس بهذا النصر والفتح فوفدوا للزيارة من سائر البلاد" (العليمي، ١٩٧٣، ج١، ص٣٨٤)، وإبان ذلك وردت إلى أراضى الحجاز المقدسة العديد من المكاتبات الأدبية المغربية الموحدية المنوعة بين رسائل منشورة وقصائد شعرية تنوعت أغراضها فمنها ما هو قصائد ورسائل تعبر عن الشوق لزيارة الحرمين الشريفين، ومنها ما هو إعلام بحال المسلمين بالعدوتين الأندلسية والمغربية وما وصل إليه جهادهم ضد أعداء الإسلام (النبراوي، ٢٠٠٢، ص ١٩٠)، وقد صاحب ذلك وأثناء وفودهم أعداد منهم فى موسم الحج جو ثقافى وعلمى حيث كانت تُعقد لقاءات علمية بين الحجيج فى شكل حلقاتٍ دراسية ، وعند القفول من الحج كان بعضهم يلحون على بعض العلماء المشرقيين للإقامة ببلادهم بالمغرب للتفقه فى الدين ، كما أثرى الرحالة الحجاج المغاربة والأندلسيون من العلماء والدارسين الحياة الثقافية المشرقية بنوع من التواليف ، وهى تلك البرامج التى برع فيها العلماء المغاربة واقتبسها منهم بعض المشارقة . والبرنامج أقرب ما يكون إلى الفهرسة أو الكتاب الذى يسجل فيه صاحبه ما قرأه من شتى المؤلفات فى مختلف العلوم والفنون السائدة فى عهده ومنها الفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب (النبراوي، ٢٠٠٢، ص ١٨٧؛ التازي، ١٩٨٧، ص ٨٣)، وتعكس رحلة ابن سعيد المغربى (٦١٠-٦٨٥هـ/ ١٢١٣-١٢٨٥م) إلى المشرق جانباً من المزاج الثقافى المغربى المشرقى الجديد (راجع: الأنصاري، ١٩٩٢، ص ١٠٧-٢٠٠).

جديرٌ بالذكر أنه بعد تداعى الوجود الصليبى فى المشرق وخاصة بعد هزيمة مسلمى الغرب فى معركة العقاب ١٢١٢م /٦١٠هـ أخذ جانب من القلاع الأندلسية فى التهاوى تباعاً فى يد الفرنج ؛ مما أثر سلباً على الحياة الثقافية بالمغرب والأندلس

حيث ضاقت أحوال العلماء وطلاب العلم ؛ فكان حافزاً لهم للهجرة أولاً إلى بلاد المغرب (روبير، ١٩٨٨، ج٢، ص ١٥٨-١٥٩)[٦]، وتحت ضغط هذه البيئة الطاردة للأندلسيين فمن الواضح أن بلاد المغرب لم تكن فقط هى الحاضنة لهم إذ وجدوا فى بلاد المشرق ما يجذبهم إليها هم والمغاربة. فتقاطروا فى هجرات نستقرأ صداها بوضوح فى كتابات مؤرخ القدس والخليل أبو اليمن العليمى الذى أهتم بذكر حال المدن الفلسطينية وتحديداً مدينتى القدس والخليل فترة ما بعد الغزو الفرنجى لهما ومن خلال كتابه يمكن الوقوف على كثير من الجوانب الاجتماعية خاصة توزيعات الطوائف الوافدة على المنطقة فكان منهم العُجم والهنود والكُرد إضافة إلى المغاربة والأندلسيين ، فضلاً عن أتباع المذاهب والطرق الصوفية المختلفة ويُعد مصدره هو الأساس الذى يُستقى منه المعلومات الخادمة لهذا الجزء من الدراسة (العليمي، ١٩٧٣، ج١، ص ٣٨٤-٣٨٦، ٣٩٧).

والثابت أن المغاربة كانوا أبرز تلك الطوائف؛ ففضلاً عما حظوا به من كرم ؛ بتخصيص أربطة وزوايا لهم بالحجاز والشام نجد الملك الأفضل على الأيوبى ثانية قد خصص لهم المدرسة التى حملت اسمه " الأفضلية " وكانت قد عُرفت فى ذلك الوقت بالقبة التى أوقفها على فقهاء المالكية المغاربة بالقدس الشريف، وهى من أبكر الشهادات على استيطانهم فى فلسطين بعد حطين. وأوقف عليهم أيضاً "حارة المغاربة " ذكوراً وإناثا وذلك خلال الفترة التى خضعت القدس لحكمه بصفتها جزء من مملكة دمشق. وجديرٌ بالإشارة إلى أن الأفضل كان حريصاً على كتابة محضر بالوقف لإبلاغ الجهات المختلفة به كما حرص على " إثبات مضمونه لدى حُكام الشرع الشريف " ليكون حجة رسمية للمنتفعين بالوقف من المغاربة بعد وفاته (العليمي، ١٩٧٣، ج٢، ص ٢٩٧). ويُعتقد من ذلك أن جانباً من البلاد الفلسطينية – بصفةٍ خاصة – شهد فراغاً سكانياً من الفرنج بعد الفتوحات الصلاحية، فقام المسلمون المجاهدون بتعويضه وكان المغاربة من أبرز الأعراق التى ساهمت بنصيبٍ فى هذا الدور بعد أن أصبح وجودهم مألوفاً فى المشرق الإسلامى.

على ذلك أخذ عدد السكان المغاربة في الازدياد فى العقود التالية التى واكبت الوجود الصليبى فى الشام؛ ونظراً لأن المذهب المالكى كان غالباً بين سكان المغرب والأندلس بصفةٍ خاصة بين دول الإسلام (المراكشي، د-ت، ج١، ق١، ص ٤٦، ٧٣، ٩٣) فإنه ما لبث أن انتقل معهم حينما هاجروا إلى فلسطين؛ وتشهدُ طائفتهم المذهبية المالكية على ذلك؛ إذ يؤكد أبو اليمن العليمى على أن المذهب الشافعى كان هو المذهب الغالب فى كل من مصر والشام منذ سلطنة صلاح الدين الأيوبى وحتى عهد السلطان الظاهر بيبرس الذى ينسب إليه تعيين قضاه للمذاهب الثلاثة الأخرى فى مصر بداية من عام ١٢٦٤م / ٦٦٣هـ، وفى الشام بداية من عام ١٢٦٥م / ٦٦٤هـ (العليمي، ١٩٧٣، ج٢، ص ٤٣٤)، ثم قدم المؤرخ ذاته قائمة بأسماء فقهاء المالكية من القضاة والعلماء وطلبة العلم، فكان من

(٦) وكان المسلمون فى معركة العقاب قد أحرزوا انتصاراً أولياً على جيوش مسيحى أسبانيا تحت قيادة ملك قشتالة الفونس الثامن إلا أن المعركة انقلبت إلى كارثة محققة فى الجانب الإسلامى حتى قُتل منهم أعداد تصل إلى ما يقرب من ثلاثمائة ألف شهيد، ومن ثم تركت الهزيمة نتائج عديدة. ولمعرفة المزيد عنها راجع: (سالم، ١٩٦٦، ص ٨١٩-٨٢٨؛ البستانى، ١٩٨٧، ص ٩٧-١١٥).

أبرزهم الشيخ عمر بن عبد الله بن عبد النبى المغربى المصمودى المجرد عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى حتى أوائل القرن التالي، وتوفى بالقدس ودفن بمقابر ماملا المشهورة بدفن المشاهير وأكابر القوم فيها، والشيخ الصالح القدوة زين الدين عبد الرحمن الكردبيسى المغربى المالكى، وكان له كرامات ظاهرة ، فعده الناس من أولياء الله الصالحين، وتوفى قبل نهاية القرن الرابع عشر الميلادى/ الثامن الهجرى ، ودفن فى ماملا. وعاصره الشيخ موسى المغربى المالكى الذى كان سبباً فى ترتيب صلاة المالكية بالقدس وتوفى بمدينة الخليل فى عام ١٣٩٧م/ ٨٠٠هـ وما برح المؤرخ أن استأنف تدوين عدد كبير من التراجم لأعلام المالكية فى القدس والخليل يُكنون جميعاً بالمغربى أو الأندلسى كانوا قد احتلوا مراتب عالية ووظائف مهمة بالمدن الفلسطينية (العليمي، ١٩٧٣، ج٢، ص ٥٨٠-٥٩٢).

إن بروز رجال بعينهم من المغاربة والأندلسيين بين سكان فلسطين على هذا النحو شأنه أن يشير إلى تكوين واقع اجتماعى جديد، نجده واضحاً من خلال الذين يتجهون إلى المساجد وخاصة الحرم القدسى والحرم الإبراهيمى بغرض إقامة الصلوات، فيما يخص الأئمة المرتبين فى المسجد الأقصى فى العهد المملوكي فأولهم إمام المالكية وهو يصلى فى الجزء الغربى جهة الجنوب أى فى المكان المعروف بجامع المغاربة، ثم يصلى بعده إمام الشافعية بالجزء الجنوبى جهة القبلة وهو المعروف عند الناس بالمسجد الأقصى، ثم يصلى بعده أمام الحنفية بقبة الصخرة الشريفة، ثم يصلى بعده إمام الحنابلة ، وهذا الترتيب فى الصلوات يتفق كذلك مع ما هو مألوف فى الصلوات داخل الحرم الإبراهيمى بالخليل حيث يصلى المالكية بالرواق الغربى من المسجد ويقع خلف الحجرة الخليلية الشريفة، ثم يصلى إمام الشافعية فى المحراب الكبير الذى إلى جانب المنبر، ثم يصلى إمام الحنفية عند مقام آدم عليه السلام (العليمي، ١٩٧٣، ج٢، ص ٣٨٤). ولعل ترتيب الصلوات على هذا النحو فى أهم جامعين بفلسطين الأقصى والخليل يعكس الواقع الذى غدا عليه طوائف المجتمع هناك فى العهد المملوكي ، ومنه يتبين أن المغاربة يأتون فى صدارة هذه الطوائف، وما من شكٍ أن ذلك يُبين المدى الكبير للوجود المغربى والأندلسى فى مجتمع تلك الجهات.

وتتعدد الشواهد الدالة على الوجود المغربى فى فلسطين من خلال بعض التفاصيل المعمارية ، فحينما شرح مؤرخ القدس والخليل أجزاء من المسجد الأقصى توقف عند جزءٍ منه حمل مسمى المغاربة وذكر عنه أنه يقع فى جهة الغرب فى صحن المسجد وهو مكان معقود "وهو مأنوس وفيه صلاة المالكية" (العليمي، ١٩٧٣، ج٢، ص ٣٧٠).

وفيما يخص حارة المغاربة بالقدس التى تم الإشارة إليها سلفاً فهى تبدأ من عند باب جامع المغاربة غربى المسجد الأقصى حيث أقيمت بجواره خانقاه كان يأمها المغاربة أقيمت فى الثلث الأول من القرن الرابع عشر الميلادى/ الثامن الهجرى (العليمي، ١٩٧٣، ج٢، ص ٣٨٦). وهناك ذكرٌ أيضاً لمؤسسةٍ تدعى "زاوية المغاربة"، وقد تحدد موقعها عند أعلى حارة المغاربة كان الشيخ عمر المغربى المصمودى المشار إليه سلفاً قد أوقفها على الفقراء والمساكين فى يناير ١٣٠٤م/ ربيع الثانى ٧٠٣هـ

من ماله الخاص (العليمي، ١٩٧٣، ج٢، ص ٣٩٧)، وفى مدينة الخليل نلمس أيضاً الوجود المغربى، ومن الشواهد على ذلك إحدى الزوايا التى أوقفت عليهم عند عين الطواشى الواقعة بجوار السور الشمالى للحرم الإبراهيمى وقد عُرفت باسمهم "زاوية المغاربة" وهى من أبرز معالم حارة الأكراد.

وهكذا لم تقتصر أحداث استرداد صلاح الدين لآيلة ميناءً وقلعةً وفتحه للطريق البرى الذى حمل اسمه بين جناحى الأمة على الآثار السياسية والعسكرية والدينية والاقتصادية والعمرانية فحسب ؛ بل هناك ما أمكن إضافته من نتائج، فالصفحات الأخيرة تدلل على أن المغاربة و الأندلسيين انفتحوا على المشرق الإسلامى إما بدوافع سياسية أم اقتصادية أم دينية وما من شك أن استخدام الطريق البرى "صلاح الدين" عبر آيلة كان عاملاً مشجعاً لذلك؛ بل إنه كان بمثابة المتغير الأبرز والسبّاق الذى أدى إلى تيسير هذا الانفتاح الذي ترك أثره في حركة الحج والتجارة والتنقل والهجرة والاحتكاك الحضارى فى شتى ألوانه حيث أخذت الفوارق بين أبناء الأمة الإسلامية فى الذوبان واتجه الجميع نحو التقارب والألفة، لإدراكهم أن المصير واحد.

الخاتمة

وفى نظرةٍ شمولية لهذه الدراسة التى استهدفت التعرف على الظروف المحيطة بحدث غزو الصليبين لبلدة آيلة وجزيرة فرعون المواجهة لها، ثم أحداث الفتح الإسلامى لهما مرتين على التوالى فى عام ١١٧٠م /٥٦٦هـ وفى عام ١١٨٣م / ٥٧٩هـ وما ترتب على ذلك من نتائج يتبين بعض الجوانب؛ فكان حدث الاسترداد الصلاحى الأول لآيلة يُعد بحق إنجازاً كبيراً إذ له ما ورائه؛ حيث أحدث نقلةً حربيةً جديدة على ساحة القتال الإسلامى الصليبى بأسرها، كما اتصلت مصر بالشام عملياً واصبح مصيرهما واحداً فى ساحة القتال وجمعتهما الوحدة السياسية الذى جسدها ذلك الجسر البرى الرابط بينهما عبر آيلة وهو ما أخذ يُعرف فى التاريخ بطريق صلاح الدين الحربى وبدت منطقة رأس خليج العقبة بوابة لمصر من جهة الشرق؛ وهناك وحينها وجد صلاح الدين نفسه فى مواجهة القبائل البدوية سواء منها من استجاب لدعوة الانضمام إلى وحدة المصير الإسلامى أم تلك التى فضلت أن تسير على طريق الخزى والعار تحت تأثير الهيمنة والدينار الصليبى. أما بعد إنقاذ مقدسات المسلمين من رينو دى شاتيو الصليبي، واسترداد آيلة ثانيةً، ما جعل المسلمين يلتفون حول صلاح الدين حيث أصبح رمزاً لوحدة رايتهم.

كذلك بدت آيلة البلدة والقلعة بعد استردادهما تشكلان قاسماً مشتركاً فى انتقالات الحجيج والقوافل التجارية رغم وجود الطريق البحرى عبر البحر الأحمر الذى فى وسعه أن يقوم بالدور نفسه حينما تكون الحجاز طرفاً فيها. واستمرت الحركة على الطريق البري عبر آيلة نشطة فى مجال التجارة ونقل الحجيج وربط أطراف المجتمعات الإسلامية غرباً فى مصر وما يليها من بلاد وشمالاً بشرق حيث الشام والعراق ، ثم الشرق بجنوب حيث الحجاز واليمن، وهكذا نجح فى تقديم أفضل السُبل البديلة للطريق البحري الخطر إبان عهد صلاح الدين وظل يقوم بهذا الدور بقية عهد الدولة الأيوبية مع فترات من التوقف، ثم انتعش من جديد فى ظل حكم الظاهر بيبرس للبلاد بحيث بدا وكأنه الطريق

الرئيسى بالنسبة لحركة الحج والقوافل التجارية المتجهة إلى الحجاز وأحياناً إلى بلاد الشام.

تجاوزت نتائج استرداد آيلة النواحى السياسية والعسكرية وحركة الحج والتجارة إلى نواحى ثقافية واجتماعية مهمة تأثرت بها المجتمعات الإسلامية خاصةً فى المشرق الإسلامى؛ إذ ارتبط بالتجارة والحج هجرة المغاربة والأندلسيين المضغوطين عسكرياً من قبل صليبى الغرب إلى المشرق الإسلامى والمشاركة بباعٍ أطول فى حركة الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق، ونجح الرحالة ابن جبير الأندلسى فى تقديم المعلومات الواضحة تأكيداً على ذلك ، كما تعددت الشواهد على وجود نقله مميزة فى الهجرة المغربية الأندلسية إلى الشرق مما أفضى إلى انفتاح المغاربة على إخوانهم المشارقة بصورة لم تكن بهذا الشكل من قبل، وكان دور الشعوب فى هذا المضمار أوضح ، حيث جاء دور الحُكام ليكمله، وبذل كل من نور الدين محمود وصلاح الدين والخليفة الموحدى المنصور بن تومرت جهداً فى جذب أو دفع المغاربة للجهاد، وترتب على هذا كله نتائج ثقافية واجتماعية أخرى إذ ظهرت مجتمعات مغاربية فى مدن المشرق؛ الإسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة ودمشق وفى مدن فلسطين أيضاً وقد واكب ذلك تأثيرات دينية أو بالأحرى مذهبية برزت فى مجال تزايد أعداد المعتنقين للمذهب المالكى فى فلسطين تحديداً، كما حازاها فى مجال الثقافة وورود فنون جديدة من المغرب فى مجال الكتابة الأدبية، وانعكست هذه التأثيرات على مساجد فلسطين الكبرى. فكان لأصحاب المذهب المالكى السبق فى أعداد المصلين فى الحرم القدسى الشريف وفى الحرم الإبراهيمى بالخليل، وفى هذا الاتجاه قدم أبو اليمن العليمى مادة تاريخية قيمة كانت كافية لوضع تصور لتغييرات التي حدثت في المجتمع الفلسطينى وإلى أى حد انتقلت إليه المؤثرات المغاربية.

وأخيراً فلعل هذه الدراسة تدلل على مدى أهمية فتح الجسور بين البلاد العربية والإسلامية تأسياً بنور الدين محمود وصلاح الدين الذى تمكن من إعادة ربط جناحى الأمة العربية فى المشرق والمغرب بطريقه صدر – آيلة، الذى غدا ينسب إليه، وما أشبه الليلة بالبارحة فإذا ما كان الصليبيون قد شقوا العالم الإسلامى إلى نصفين فهاهم الصهاينة يشقونه ثانيةً على انتظار لصلاح دين جديد ليلم شتات هذه الأمة. وعلى الشعوب أن تقوم بدورها للنهوض من كبوتها، كما فعل الأسلاف.

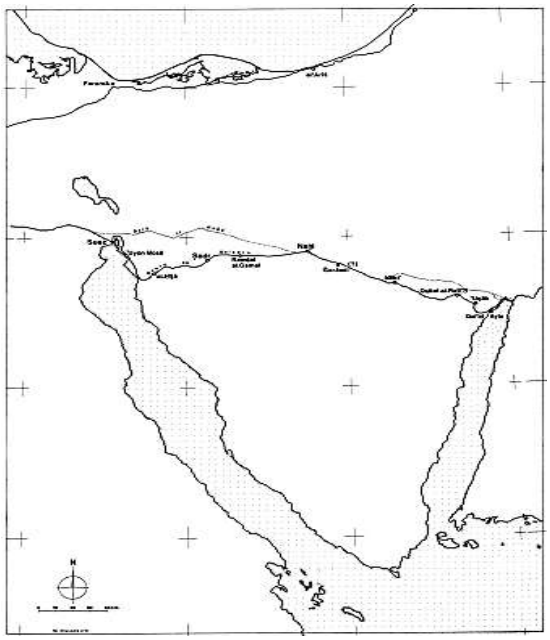

خريطة طريق صلاح الدين الحربي (صدر–آيلة)

طريق صلاح الدين الحربي (صدر – آيلة)

(Mouton, 1996, p. 58)

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر العربية:

– ابن الأثير (ت٦٣٠هـ/١١٢٤م)، عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم بن عبد الواحد الشيبانى الجزرى، الكامل في التاريخ، ١٢ج، بيروت،١٩٧٩م.

- أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)، مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد الشيزرى: كتاب الاعتبار أو حياة أسامة بن منقذ، تحقيق ونشر فيليب حتى، الولايات المتحدة الأمريكية، جامعة برنستون، ١٩٣٠م.

- ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطبنى، رحلة ابن بطوطة والمسماة تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت، دار صادر، ١٩٩٢م.

- البلاذري (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، ٥ج، بيروت، ١٩٥٧م.

- البنداري الأصفهانى (ت ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) الفتح بن على بن محمد، سنا البرق الشامى، القاهرة، نشر فتحية النبراوى، ١٩٧٩م.

- ابن أيبك الدوادارى (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، أبو بكر عبد الله ابن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر (الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب)، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م.

- بنيامين التُطيلى، قام برحلته بين (٥٦١-٥٦٩هـ/١١٦٥–١١٧٣م)، بن يونه التُطيلي النبّاري الأندلسي، رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، الطبعة الأولي، بغداد، ١٣٦٤ هـ/١٩٤٥م.

- ابن جبير (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسى: رحلة ابن جبير المسماة تذكرة الأخبار فى اتفاقيات الأسفار، تحقيق حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٥م.

- الجزيرى (رحلة حجه عام ١٥٤٨م)، درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المعظمة، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٩٦٤م.

- الحريرى (ت القرن السادس الهجرى/ القرن الثانى عشر الميلادى) أحمد بن على بن أحمد، الإعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، تحقيق مهدى رزق الله أحمد، الطبعة الأولى، الإسكندرية، دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٦م.

- ابن خرداذبة (ت ٢٨٠هـ/ ٨٩٤م)، أبو القاسم عبيد الله عبد الله بن خرداذبة، المسالك والممالك، ليدن ١٨٨٩م.

- ابن خلكان (ت ٦٨٨هـ/ ١٢٨٢م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ٦ج، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٧- ١٩٦٨م.

- ابن الزيات (ت ٦٢٧هـ/١٢٣٠م) أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التادلى، التشوف إلى رجال التصوف، نشر وتصحيح أدولف فور، الرباط، مطبوعات أفريقيا الشمالية، ١٩٥٨م.

- سبط ابن الجوزى، (ت٦٥٤هـ/١٢٥٧م) أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلى، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، حيدر آباد، ١٣٧٠هـ/١٩٥١-١٩٥٢م.

- السيوطى (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين، بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، ٢ج، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٩م.

- شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي البغدادي، المشترك صقعاً والمفترق وضعاً، القاهرة، د-ت.

- أبو شامة (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م)، شهاب الدين أبو محمد بن إسماعيل، الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢ج، بيروت، (د–ت).

- ابن شداد (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م)، القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن تميم بن عتبة: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٤م.

- ابن العديم (ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م) كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله الحلبى، زبدة الحلب فى تاريخ حلب، ٣ج، نشر سامى الدهان، دمشق، ١٩٥١م.

- العليمى (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٢م)، أبو اليمن عبد الرحمن بن مجير الدين: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ج، بيروت، ١٩٧٣.

- العماد الأصفهانى (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) عماد الدين محمد بن محمد بن حامد، الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق محمد محمود صبيح، القاهرة، ١٩٦٥م.

ـــــــــــــــــــــــــــــــ، البرق الشامى، ج٥، تحقيق صالح فالح حسن، الأردن، ١٩٨٧م.

- الفاسى (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٩م)، تقى الدين محمد بن أحمد الحسنى الفاسى المكى، العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ٨ج، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨م.

- أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، إسماعيل بن علي محمود، تقويم البلدان، تحقيق رينو ودى سلان، باريس، ١٨٤٠م.

ـــــــــــــــــــــــــــــــ، المختصر في أخبار البشر،٤ج في مجلدين، بيروت، د-ت.

- القلقشندى (ت٨٢١هـ/١٤١٨ م)، أبو العباس أحمد بن على بن أحمد عبد الله، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤ج، القاهرة، ١٩١٣ – ١٩١٤م.

- أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٦ج، القاهرة، ١٩٢٩-١٩٤٣م.

- المراكشى (ت ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك بن الأنصارى الأوسى، الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة، تحقيق محمد بن شريفة، بيروت، دار الثقافة، (د-ت).

- المقدسى البشّارى (عاش في القرن الرابع الهجرى/ القرن العاشر الميلادي)، شمس الدين أو عبد الله، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٠٣م.

- المقريزى (ت ٨٤٥ هـ/١٤٤٣م)، تقى الدين أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٤ج، القاهرة، ١٣٣٤هـ.

ـــــــــــــــــــــــــــــــ، اتعاظ الحنُفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلفا، ٣ج، تحقيق محمد حلمى أحمد، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩م.

- المنذرى (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٥٨م) زكى الدين أبو محمد عبد العظيم الشافعى، التكملة لوفيات النقلة،٦ج، بيروت، نشر بشار عواد معروف، ١٩٧٥-١٩٧٦م.

- ابن واصل (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م) محمد بن سالم جمال الدين، مفرج المكروب فى أخبار بنى أيوب، ج١-٣، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣-١٩٦٠م.

- ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ه/ ١٢٢٩م)، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى البغدادى، معجم البلدان، ٥ج، بيروت، ١٩٧٥م.

- اليعقوبى (ت ٢٩٢هـ/٩٠٥م)، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، كتاب البلدان، طبع على هامش الأعلاق النفيسة لابن رسته، ليدن، مطبعة برايل،١٨٩١م.

_____: معجم البلدان، ٥ج، بيروت، ١٩٧٥م.

ثانيًا: المصادر الأجنبية:

- Albert d' Aix : Historia Hierosolymitana, en,Recuiel des Historiens des Croisades,Historiens Occidentaux, Tome IV, Paris, 1879.
- Delaville, le Roulx, (ed.), Cartulaire général de l'Ordre des Hospitaliers de Saint-Jean de Jérusalem (1100-1310), 4 Vols., Paris, 1894-1906
- Ernoul, La Chronique d' Ernoul et de Bérnard le trésorier, ed. Mas-latrie, Paris, 1871.
- Fulcher of charters, A history of the expedition to Jerusalem trans. by Frances Rita Ryan,Sisters of St. Joseph., ed. with an introduction by Harolïs fink konuville, U.S.A, 1969.
- Jean d' Iblin, Livre de Jean d'Iblin In. Ass. Jer. Tome I. daimond, 1983.
- Kinnamos John., Deeds of John and Manuel Comneus, Tr. by Charles M. Brand, New York, 1976.
- William of Tyre, A history of Deeds Done Beyond the Sea, 2 Vols.,Trans. by Bobcock and Kray, New York, 1943.

Mayer Hans, E., (ed.), Tabulae Ordinis Theutonici, Berlin, 1975.

ثالثًا: المراجع العربية والمعربة:

- إبراهيم زكي خورشيد وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، ج٥، القاهرة، مطبعة دار الشعب.
- أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامى في بلاد الشام في عهد الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٧٧م.
- أحمد مختار العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية، د–ت.
- برنشفيك روبير، تاريخ أفريقيا فى العهد الحفصى من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥ الميلاديين، ٢ج، ترجمة حمادى الساحلى، بيروت، دار المغرب الإسلامى، ١٩٨٨م.
- بطرس البستانى، معارك العرب فى الأندلس، دار مارون عبود، ١٩٨٧م.
- جابر سلامة المصرى، الحجيج المصرى فى العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، عدد ٣٣، ١٩٨٥م.
- جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ٢ج، دار المعارف، ١٩٦٧م.
- حسن عبد الوهاب، "مصر وأمن البحر الأحمر فى عهد الحروب الصليبية"، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، العدد التاسع، أبريل ١٩٩٢م.
- حسنين محمد ربيع، في البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، أبحاث الأسبوع العلمى الثالث، سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث، جامعة عين شمس،١٩٨٠م.
-سامى صالح عبد المالك، التحصينات الحربية الباقية بشبه جزيرة سيناء من العهد الأيوبى (دراسة أثرية – معمارية)، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- سعيد عاشور، الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى، ٢ج، القاهرة، ١٩٦٣م.
- السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير (في العهد الإسلامى دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية)، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦م.
- سيدة إسماعيل كاشف، البحر الأحمر والفتح العربى لمصر، في البحر الأحمر في التاريخ و السياسة الدولية المعاصرة، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٨٠م.
- عبد الشافى غنيم عبد القادر، "البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية"، في البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، أبحاث الأسبوع العلمى الثالث، سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث، جامعة عين شمس،١٩٨٠م.
- عبد الهادى التازى، التاريخ الدبلوماسى للمغرب منذ أقدم العصور إلى اليوم، المغرب، مطبعة فضالة، ١٩٨٧م.
- قاسم عبده قاسم، "علاقات مصر بعالم البحر الأحمر فى عهد سلاطين المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢-١٥١٦م)"، فى البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٨٠م.
- محمد جابر الأنصارى، التفاعل الثقافى بين المشرق والمغرب، فى آثار بن سعيد المغربى ورحلاته المشرقية وتحولات عهده، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامى، ١٩٩٢م، ص ١٠٧-٢٠٠.
- محمد لبيب البتنونى، الرحلة الحجازية، القاهرة، مطبعة الجمالية، ١٣٢٩هـ.
- محمد مؤنس عوض، وليم الصورى مؤرخاً للقلاع الجنوبية لمملكة بيت المقدس الصليبية (١١٣٧– ١١٥٠م/ ٥٣٢ –٥٤٥ هـ)، دراسات شرق أوسطية، رقم ١٨٠، القاهرة، جامعة عين شمس، مركز بحوث الشرق الأوسط، ١٩٩٥م.
- نجلاء محمد النبراوى، الأبعاد السياسية والحضارية لفريضتى الحج والجهاد بالمغرب والأندلس منذ بداية عهد المرابطين حتى سقوط مملكة غرناطة (٤٤٠-٨٩٨هـ/ ١٠٤٨-١٠٩٢م)، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد، إشراف: حمدى عبد المنعم، حسن خضيرى، آداب قنا، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- نعوم شقير، تاريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها، بيروت، مطبعة دار الجيل، ١٩٩١م.
- يوسف درويش غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، عمان، ١٩٨٢م.

رابعًا: المراجع الأجنبية:

- Deschamps, P., Les châteaux des croisés en terre sainte La défense du royaume de Jérusalem, 2 Vols., Paris, 1939..
- Grousset, R., Histoire des Croisades et de Royaume France de Jerusalem, 3Vols., Paris, 1948.
- Hamilton, B., "The Elephant of christ, Reynald of Chatillon", in Monastic Reform Catharism and The Crusades 900-1300, London, 1979.
- Holmes, U.T., "Urban life mind in Palastine and Syria in Twelfth and Thirteenth centuries", in A history of the Crusades, ed. Setton, K. M., 1985.
- Leiser, Gery La Viere "The Crusader Raid in The Red Sea in (1182 – 1183)", in J.A.R.C.E.,.XIV, 1977.
- Mas Latrie, "La Terre de L'autre" Trans- ourdaine et ses Premiers Seigneurs", in B.E.Char., XXXIX, 1878.
- Müller Wiener,W., Castles of the Crusaders, London, 1966.
- Richard,J., Les Navigations des Occidentaux Sur L'Océan Indien et la Mer Caspienne (XIIe – XVe siècles), ed. O.O.M., London,1976.
- Schlumberger, G., Renaud de Châtillon, Paris, 1898.

- Mayer, H.E., The Grusader Lordship of Karak and Shaoubak, Some Preliminary Remarks in Studies in the History and Archeology of Jordan, Aman, 1987.
- Mouton, J. M., Autour des inscriptions de la Fortresse de Sadr (Qulat al Gindi) au Sinai, Annales, (I. f. A. o. du Caire), Vol. XXVIII, 1994.
- Mouton, J. M., et autres, La Route de Saladin, (Tariq Sadr We Ayla) au Sinai, Annales Isl. (I. F. A. O. du Caire), 1996.
- Whitcomb, the town and name of Aqaba, Aman, 1994.

Historical Repercussion for the Saladin Recovery of Ayla from the Crusaders in 1170 AD \ 566AH and 1183 AD \ 579AH

Ali Ahmed Mohamed Elsayed
Professor of Middle Ages History
Faculty of Literature – Damanhour University

Abstract

This study aims to shed light on the crusaders' invasion of Ayla and the island of Pharaoh. Thus, it concerns the Muslims's recovery of the two places in 1170 and 1183 AD examining the political and military repercussions. The paper further uncovers the repercussions of restoring the Muslim control on the pilgrimage and trading travels between Egypt and Levant, unlocking the roads (communications) between the East and East (Maghreb) Islamic world.

From a political and military point of view, the first recovery of Ayla by Saladin (Salah al-Din) caused a new shift on the battlefield of the Muslim-Crusader encounter. Egypt practically connected with the Levant and unified through this new established bridge through Ayla, which is historically known as the Salah al-Din's military road. At that time, Saladin found himself in confrontation with the Bedouin tribes who collaborated with the Franks. However, after controlling Ayla in 1183 and protecting the Muslim Holy Land in the Hijaz from the Crusaders' invasion, Saladin subjected Bedouins under his authority and involved some of them in his camp, making the routes much more secure.

The second repercussion was the impulse of the pilgrimage and trading movement through the re-opened wild route, despite the existence of the naval Red Sea route. However, the naval road continued to play the same during the Ayyubid period, refreshing with al-Zahir Baybars' era appearing to be the primary roadway to Hejaz and the Levant.

The third resonance was the refreshment of the socio-cultural movement that was closely associated with trade and Hajj (Islamic pilgrimage). Maghreb mujahideen emigrated to the Islamic East to fight the Crusaders, and their scholars became in close contact with the al-Masdschid al-Harām and Al-Masdschid al-Nabawi. Further, they had benefited from the privilege of residence in Egypt and the Levant, contributing to the appearance of new doctrinal influences like increasing the followers of the Mālikī madhhabs (Maliki school), especially in Palestine. The Maghreb influences further extended to impact culture, arts, and literary writings in the Islamic East

Keywords: Ayla, Crusaders, Salah al-Din's military road, Hajj (Islamic pilgrimage)\ trade, unlocking, Moroccans.